الأمهات

مريم بنت عمران

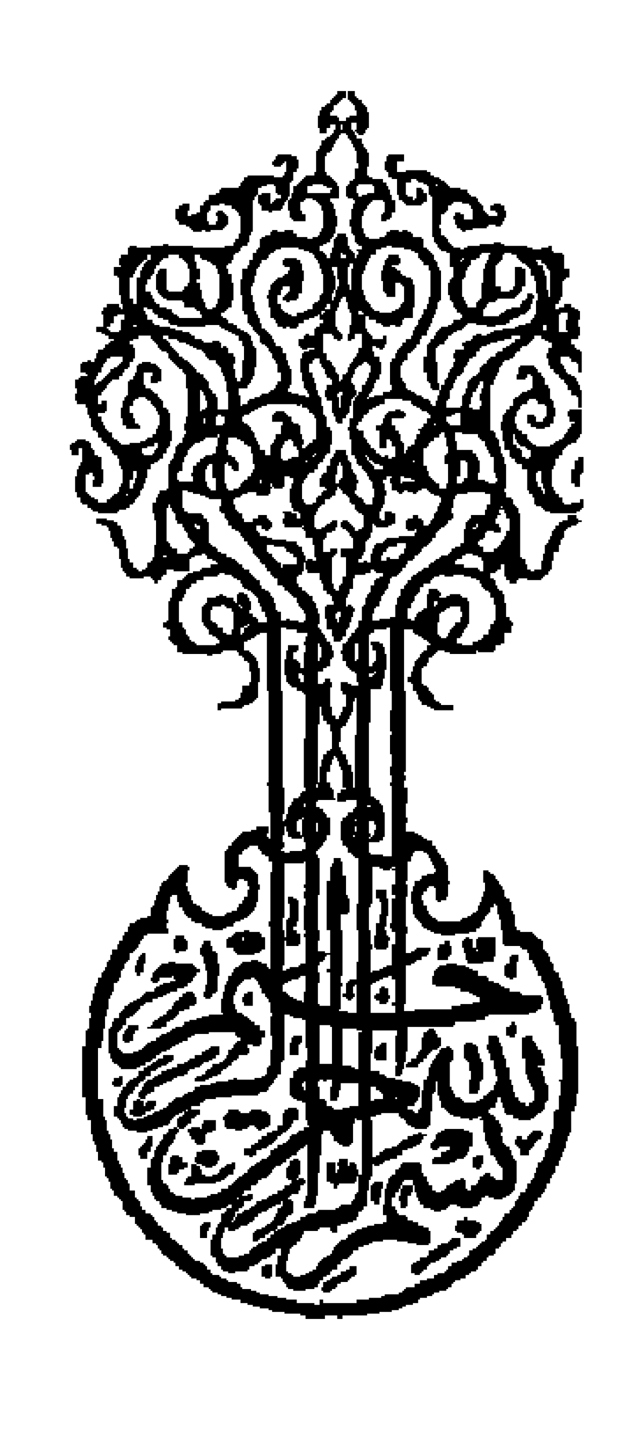
ام المسيح

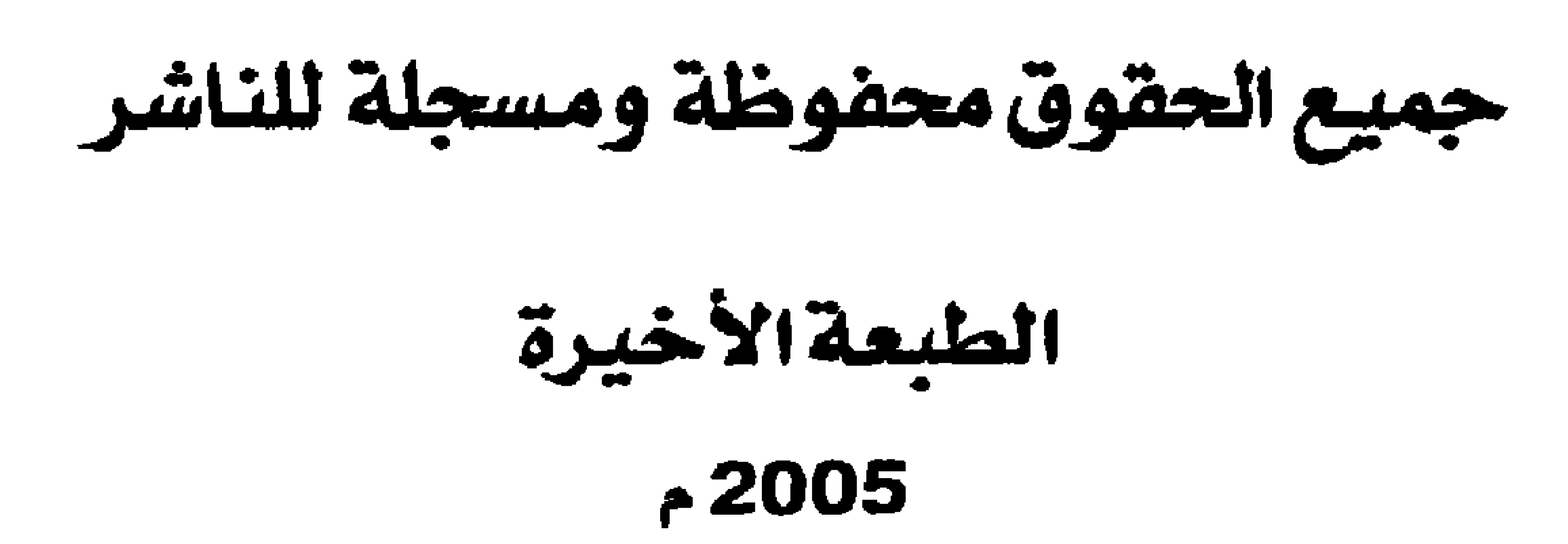
تأليف

الأستاذ عبد المنعم الهاشمي



مريم ابنة عمران





الطبعة الأخيرة

2005 م

تطلب منشوراتنا في الولايات المتحدة الامريكية

على العنوان التالي:

P.o.Box:3266
Fallschurch.
Virginia usa . 22043

مريم ابنة عمران

تأليف
عبد المنعم الهاشمي

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان

ISBN 9953-75-021-1



دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر
جادة هادي نصر الله -بناية برج الضاحية-ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 540891 1 961 00 فاكس: 540892 1 961 00
ص.ب: 15/5003 الرمز البريدي 2010-1101 البسطا-بيروت لبنان
http:\\www.darelhilal.com E-mail:info@darelhilal.com

إهداء

إلى كل من يدعو إلى المحبة والسلام

إلى العفو والتسامح

إلى حب العفة والطهارة

أهدي هذه السيرة

عبد المنعم الهاشمي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ.

وبعد:

فإن سيرة مريم نبع فياض من العفة والطهارة.

وسيرة مريم روضة فيحاء من الصبر والتسامح.

وسيرة أم المسيح نفحة من دعوة ابنها عليه السلام.

سيرتها في الناصرة وفي بيت لحم وفي كل مكان وطأت قدماها الشريفتان مع ابنها المسيح سيرة طيبة نسعى جميعاً للصادق منها والأمين.

تحية إلى مريم في سيرتها العطرة.

عبد المنعم الهاشمي

مريم ابنة عمران
حديث السماء والأرض

مريم ابنة عمران عليها السلام كانت حديث السماء وحديث الأرض ففي السماء اصطفاها الله عز وجل واختارها دون نساء العالمين وقع عليها اختيار رباني، وأشارت إليها إرادة الله لتصطفى وتكون خير النساء على الإطلاق، لم يكن هذا حديثاً نحدِّث به بل هو حديث الله الذي نقلته الملائكة إلى مريم فقال عز وجل:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

لقد اختارها الله، من أول الأمر، اختارها بداية، ولطف بها وميزها على كل محرر، وخصها بالكرامة والإكرام.

لقد اصطفاها الله بالتقريب والمحبة، وكيف بإنسان يكون قريب من الله ويحبه؟ لقد منحها الله حبّاً وقرباً لم يمنحه لأحد من نساء العالمين ولذلك فقد طهرها من الرذائل، واصطفاها من بين نساء العالمين في زمانها.

ولعل شهادة التقدير والدرجة التي عليها مريم ابنة عمران عليها السلام

هي أنِ الله اصطفاها بالتقريب منه والمحبة، وطهرها من الرذائل، والاصطفاء الثاني كان اصطفاءً على بنات جنسها ونساء العالمين في زمانها[1].

هذا الاصطفاء بنوعيه اصطفاء المحبة والتقريب والقرب من الله، واصطفاء التفضيل على نساء العالمين والذي كان بينهما ما لا بد له أن يكون في حديث السماء والأفق ألا وهو الطهر.

قال لها جبرئيل والملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

هذا الحب وهذا التقريب، وذلك الاصطفاء على بنات جنسها ألا يحتاج من حديث السماء والأفق إلى شكر صاحب النعمة وهو الذي اصطفاها اختياراً وتفضيلاً وقرباً ـ جاء التوجيه من صاحب النعمة، ممن لا يحمد على خير سواه ومما لا يحمد على مكروه سواه.

ترى ما هو توجيه السماء لهذهِ العذراء المباركة؟ كان توجيهاً عظيماً قال فيه جبرئيل والملائكة نقلاً عن رب العزة جل شأنه قالوا:

﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثلاث أعمال طلبها جبرئيل من مريم أولها: القنوت، وهو الالتزام بعبادة الله وطاعته فقال لها اقنتي أي الزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه واختياره لك من بين سائر النساء فخصك بالكرامات وطهرك من الأدناس ومما اتهمك به اليهود من الفاحشة، واصطفاك على نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله من إنجاب ولد

---

(١) انظر تفسير القاسمي ج٤ ص٩٦، ٩٧.

بدون أب ـ لذلك كله جاء حديث السماء لمريم ابنة عمران مستهلاً بالقنوتِ فقال لها: اقنتي أي الزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه واختياره لك.

والأمر الثاني والثالث: هما الركوع والسجود وهما الصلاة لرب العالمين[1] هذا هو حديث السماء مختصراً يأتي مفصلاً عندما نلتقي بمريم وقصتها كجنين في بطن حنة بنت فاقوذ، وفي كفالة زكريا، وفي ميلاد عيسى أما حديث الأرض فكان من محمد ﷺ، ترى ماذا يقول محمد ﷺ في مريم؟ قال عليه السلام، عن علي رضي الله عنه:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[2].

ومن كمالها رضي الله عنها الذي استثناه عليه السلام واقتصره على مريم قال عليه السلام: كمل من الرجال كثير ولم تكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

أخرجه مسلم

وصفها بالكمال، كمال الخُلقِ وكمال الخَلْق، لم يختر امرأة كاملة سواها وآسيا، وإن ذكر فضل زوجته عائشة على النساء.

وفي حديث الرسول ﷺ عن مريم اتصال بحديث السماء عنها عليها السلام وإذا كان لها الاصطفاء والاختيار من السماء، والكمال من الأرض، فإنه لا بد وأن تكون مصانة من كل دنس فطُّهِّرت، وبقي ما بينها كبشر وبين الشيطان أنه في حاجة إلى بحث ونظر، ولكن حديث

(١) صفوة التفاسير للصابوني ج١ ص٢٠١ ط دار القرآن الكريم بيروت.

(٢) أخرجه مسلم.

الرسول ﷺ أكمل رسم الإطار مؤكداً حديث السماء فقال:

«كل بني آدم يمسه الشيطان، يوم ولدته أُمه، إلا مريم، وابنها».

أخرجه مسلم

هذا الكمال في جوامع الكلم المحمدي صلوات الله وسلامه عليه، أنه أرفع وسام، كاملة النساء ومعها آسيا ولم يضف إليها في جنة الكمال أحد من النساء، أي تكريم هذا! وأي سمو رفيع يصل إلى كمال مريم في حديث الأرض واصطفائها واختيارها في حديث السماء حسبك من نساء العالمين، ترى من هن هؤلاء النساء؟

هذا ما جاء به أنس عن رسول الله ﷺ، حينما قال:

«إن النبي ﷺ قال: حسبك من نساء العالم مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون».

أخرجه الترمذي

هذه الباقة وعلى رأسها مريم هي استثناء خاص لمريم من نساء العالمين في حديث الأرض كما كانت في حديث السماء.

آل عمران

ان الاصطفاء الربّاني كوكبة عظيمة وباقة فواحة مريم زهرة من زهراتها وقد جاء الاصطفاء والاختيار من رب العزة.

والاصطفاء هنا ضم النبوة وما اتصل بها فقال عز وجل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤].

اصطفى آدم للنبوة، ونوحاً شيخ المرسلين، وقد ثنّى رب العزة بنوح لأنه آدم الأصغر، والأب الثاني بعد آدم، لأنه ليس أحد على وجه الأرض إلا من نسله لقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

واصطفى الله عز وجل آل إبراهيم قيل هم: إسماعيل وإسحاق، والأسباط. والمراد بالأسباط ذلك العدد الكبير من أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله تعالى.. وآثارهم النبوة من بعد يعقوب.. إلى بعثة المسيح عليه السلام.

واصطفى آل عمران، إنهم من المصطفين الأخيار، والمراد بهم: عيسى وأُمه مريم بنت عمران بن ماثان ـ اصطفاهم على العالمين من أهل زمانهم وكل هؤلاء ذرية بعضها من بعض، في النية والعمل والإخلاص والتوحيد وسلالة منتقاة في الصفات العليا، ولا يعلم هذا

إلا خالق الناس جميعاً وآل عمران بعض من ذرية إبراهيم، لقد اصطفى من آل عمران أُنثى طاهرة هي ابنة عمران عليهما السلام، والمثير في هذا أن الله اصطفى من طهر آل عمران وطيبهم فتاة هي مريم: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وجعل اسم مريم، ابنة عمران تكريماً وتعظيماً لعمران مع مريم عليها السلام ذرية بعضها من بعض.

هذا النسب الطيب والذي جاءت شهادة نسبه وميلاده في أشرف كتاب على وجه الأرض هم آل عمران.

وقد سماها ربها في القرآن باسمها أربعاً وثلاثين مرة في اثنتين وثلاثين آية مثل:

- ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦].

- ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢].

- ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣].

- ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

- ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾ [النساء: ١٧١].

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: ١٦].

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨].

ذرية حِنَّة وعمران

عمران بن ماثان من أشراف بني إسرائيل وأحبارهم، ومن سلالة نبيهم داود، وقد نزلوا له عن شرف خدمة وسدانة معبدهم والعمل على خدمته ليل نهار.

وزوجته هي حِنّة وأختها إيشاع بنت فاقوذ زوجة زكريا عليه السلام تزوجها عمران ولم تحمل منه حتى أسنَّت وبلغت من العمر أرذله، ولم يكن لها ولد.

هذه السنوات البعيدة عاشها عمران مع زوجته حِنّة على سفوح جبال حبرون، قرب مدينة أورشليم (القدس) في فلسطين، بنى عمران في هذا المكان منزلاً صغيراً شأنه شأن المنازل المتناثرة على سفوح هذه الجبال.

كانت حِنّة بنت فاقوذ امرأة صالحة، حباها الله إيماناً راسخاً، وقناعة عظيمة وصبر جميل ورقة تفوق رقة النسيم، وقد أنعم الله عليها بالعيش في منطقة هادئة تتناثر حولها أشجار الزيتون، وتفوح منها رائحة الورود والرياحين، ويعيش في جنباتها سكون لا تقطعه إلاّ تسابيح الكائنات الهامسة هنا وهناك وخرير مياه الينابيع القاطرة في أعلى الجبل لتتدفق هادئة صافية عذبة حلوة المشرب وساحرة اللون

والمنظر عاشت حنة مع عمران في بيتهما المتواضع الجميل وحيدين، لأن الله حرمهما نعمة الخلف، ووهب لهما نعمة الصبر والإيمان، فظلا كذلك حتى كبرا وشاخا.

كانت حِنَّةُ ذات يوم جالسة تحت شجرة من أشجار سفح جبال حَبْرُون الظليلة، وقد هبت روائح الزهور عبقة في السهل كله، فجعلت تجول بناظريها هنا وهناك حتى وقع نظرها على عصفور يَزُفُّ فِراخَهُ، فتحركت في قلبها عاطفة الأُمومةِ، واشتهت أن يكون لها ولدٌ، فصارت تُفكِّرُ بعد ذلك في الْخَلَفِ والإنجاب وتحلم به، فإذا خلت بأُختها إيشاع زوج زكريا عليه السلام، حدثتها بذلك، وأفاضت بالحديث عمّا يجول بخاطرها، وكانت أختها إيشاع عاقراً مثلها، فلما سمعت كلامها عاودها الحنين إلى الرغبة في الإنجاب من قديم الزمان، ولكن إيشاع وطَّنت نفسها على الرضا والتسليم، والصبر على قضاء الله، وقنعت مؤمنة بأن هذا عطاء الله يرزقه لمن يشاء.

رأت إيشاع أُختها حِنّة وهي لا تزال تعيش هذا الأمل، فأشفقت عليها وجعلت تدعوها إلى الصبر وتواسيها، وتبث في نفسها الصبر والرضا بقضاء الله سبحانه عز وجل، وتحاول أن تبين لها استحالة تحقيق هذا الأمل.

ولكن حِنّة كانت تشعر شعوراً خفيّاً، كانت تشعر بقرب تحقيق هذا الأمل لها ولزوجها عمران بن ماثان الشيخ المسن وحبر بني إسرائيل العجوز، وكأن هاتفاً يبعث في نفسها نور الرجاء، فيعاودها الحنين، وتقوى الرغبة، فإذا هي تتجه إلى الله بالدعاء والابتهال، لكي يهب لها غلاماً تقر به عَيْنُها، ويكونَ خليفةَ أبيه في سدانة البيت، بيت عبادتهم ومحرابهم.

كان دعاء حِنّة محمود عند ربها، مسموع ومجاب منه سبحانه

وتعالى فاستجاب الله دعاءُها، فحملت، وشعرت بالجنين يتحرك في بطنها، فطابت نفسها، وعظمت ثقتها بالله، وعلا يقينها وسمت عقيدتها سمواً يتناسب مع رحمة الله بها، فذهبت إلى بيت المقدس، ووقفت في المحراب، وعينها تفيض بالدموع، دموع الفرح والشكر، وقلبها يفيضُ بالشكر والإيمان وقالت من خشوع:

- ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

أي نذرت لعبادتك ما أحمله في بطني «محرراً» أي مخلصاً للعبادة والخدمة[١].

ولما انتهت من تعبيرها عن الشكر بهذا الحديث الطيب والنذر المبارك، لما انتهت من ذلك، غمرها فيض من النور، فظلت واقفة مكانها، قد انتابها ذُهول، فطال وقوفها، ترى هل هي في شك لما في بطنها، ولكنها تشعر به يتحرك، فلم يعد عامل السن حائلاً أمام قدرة الله سبحانه جل شأنه.

شك الناس في أمرها لطول مكوثها ووقوفها، فكان الزائرون والزائرات يدورون حولها، ينظرون إليها نظرة عابرة تارة، وتارة أُخرى يتوقفون ليروا نهاية هذا السكون وهذا الخشوع.

كانت لا تشعر بهم، ولا تحس بوجودهم، ولا تشعر بما يجري حولها، ثم أفاقت بعد وقت فعادت إلى بيتها على عجل لتحمل البشرى لزوجها عمران.

ولما دخلت أخبرت زوجها عمران بحملها ونذرها، فَسُرَّ بذلك

---

(١) انظر صفوة التفاسير ج١ ص١٩٨.

سروراً عظيماً، لأن الله عز وجل وصل ذريته من بعده في خدمة البيت المقدَّس، ووقف رافعاً يديه إلى السماء يدعو الله ويشكر له.

وكيف لا يشكر الله وقد ورث الشكر من آل داود أجداده وآبائه والذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

الميلاد

مات عمرانُ قبل أن تلِدَ زوجته حِنّة بنت فاقوذ، فحزنت عليه حُزناً شديداً، كان حزنها حزن الصابرات، فعاشت وحيدَةً لا أنيس لها إلا جنينها الذي يتحرك في بطنها بين حينٍ وحينٍ.

جاء موعدها، ولا يؤخر الله موعداً، جاءها المخاض بآلامه وأفراحه فوضعت، وإذا الوليدة أُنثى، فخاب الأمل، وكانت صدمتها عنيفة ـ لأن بني إسرائيل لم يعتادوا أن يهبوا لخدمة بيوت عبادتهم إلا ذكوراً، وكان رجال الدين وسدنة البيت لا يقبلون البنت إذا وَهَبها أهلها، فكيف بنذرها الذي نذرته عندما قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

انتاب الحزن «حِنّة» أُم مريم لأن ذرية عمران لم يعد لها مكان في سدانةِ البيت المقدّس، وقد كانت قوية الأمل عالية اليقين في أن يكون المولود ذكراً، فظلت حائرة تفكر في نذرها الذي لم تستطع الوفاء به. لم تجد حِنّة في محنتها هذه إلا ربها وخالقها ومعينها، فاتجهت إليه عز وجل حائرة يائسة لتخرج من حيرتها ويأسها ورفعت رأسها إلى السماء وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ

﴿أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

لقد طلبت من ربها الكثير، طلبت أن تقبل كمنذورة فتاة وأُنثى وليس ذكراً كما اعتاد بنو إسرائيل في نذرهم لسدانة البيت، واختارت لها الاسم وهو «مريم» ومعنى كلمة مريم في لغة بني إسرائيل العابدة خادمة الرب، وقال البعض ان اسم مريم معربة مارية بمعنى: جارية.

وقد يقول القائل أن تسمية حِنّة لطفلتها الصغيرة، كان رجاءً في ضميرها ونفسها بأنه إن لم تكن مريم خليقة بسدانة البيت، لأنها أُنثى، فلتكن يا رب من العابدات فيه، واستقلالها بالتسمية ربما ليتمها لكون عمران مات، وأُمها حامل بها، وهو خادم البيت والسادن له قد مات ولم يشارك حنة في التسمية.

كانت عاطفة حِنّة فياضة فيض النهر، فجاء الدعاء رجاءً مؤمناً ودوداً فيه دفء الإيمان وحلاوة المشاعر.

قالت امرأة عمران ذلك، فتجلى لها النور الذي رأته يوم نذرتها في المحراب، وأفهمها الله عز وجل أنّه قد تقبل مولودتها الأنثى بقبول حسنٍ، وكأن هاتفاً يهتف بها أن تفي بنذرها.

الأحبار ومريم

كانت فرحة امرأة عمران بمولودتها فرحة عظيمة حينما لفتها وهي تنظر إليها بحنان متدفق، وذهبت بها إلى بيت المقدس، ومما زاد فرحتها وسعادتها أنها وجدت ترحيباً من الأحبار، فقالت:

«دونكم هذه المنذورة - مريم ابنة عمران، لقد صارت أُختكم في خدمة البيت وسدانته»[1].

تقبلوها بقبول حسن كما تقبلها ربها، لم يعترض عليها منهم معترض، فتركتها حنة في رعايتهم، وعادت إلى بيتها الهادىء الجميل على سفح جبال حبرون قرب القدس، عادت راضية مطمئنة، بعد أن وَفَتْ بنذرها، وأدت أمانتها إلى أهل الأمانة.

اختلف أحبار البيت في أمرها، فقد عرفوا مكانتها، وأحسوا بطهرها واصطفائها، وحاول كل منهم أنْ يحظى بشرف تربيتها وكفالتها وهذا شرف عظيم يصرفه كل الأحبار الذين كانوا في البيت وعلى رأسهم زكريا بن برخيا عليه السلام زوج خالتها إيشاع.

جاء زكريا بن برخيا إلى الأحبار وهو يثق في أنه سيفوز بهذا

---

(١) انظر تاريخ ابن الوردي ج١ ص٣٠، وقصص الأنبياء للكسائي ج٢ ص٣٠١، ٣٠٢، وتاريخ الطبري ط ليدن ج١ ص٧١٢، بتصرف يسير بين النصوص.

الشرف العظيم، شرف كفالة مريم ورعايتها وهي المصطفاة والمطهرة كما وصفها رب العزة ﴿ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ المعاذة بالله من الشيطان هي وذريتها. تقدم زكريا وقال لهم: إني أولى بها، فزوجتي إيشاع خالتها، وهي أحقُّ منكم جميعاً بكفالتها.

فوقف واحد من الأحبار ليقول: لقد أصبحت مريم المنذورة ملكاً للبيت، وليست ملكاً لأحد بعينه منّا، فلنقترع على من يكفلها، والخير فيما يختاره الله.

جاء اقتراح هذا الحبر مرضياً لإخوانه الأحبار جميعاً بما فيهم زوج خالتها زكريا عليه السلام، واتفق الأحبار على ذلك، وذهبوا إلى نهر الأردن، وكانت القرعة أن يلقوا في النهر أقلامهم التي يكتبون بها التوراة والفائز هو صاحب القلم الذي يطفو على سطح الماء.

جاؤوا بأقلامهم جميعاً، وألقوها كما اتفقوا، فرسبت الأقلام جميعاً إلا قلم زكريا، وَكَرَّروا ذلك العمل ثلاث مرات، وفي كل مرَّةٍ كَانَ قَلَمُ زكريا يطفو، وترسُبُ أقلامُهُمْ.

جاء ذلك كله في الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وكفلها زكريا

حقاً لقد كفلها زكريا بعد أن خرجت القرعة له عندما طاف قلمه ثلاث مرات وهم يقترعون، وذلك بعد أنْ تقبلها ربها بقبول حسن.

فيقول رب العزة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقد قالوا[١] في: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي سلك بها طريق السعداء. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي رباها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة[٢].

أخذ زكريا مريم إلى داره، واستأجر لها المراضع، وعنيت بها زوجته إيشاع وهي خالتها، فعطفت عليها عطف الأم، وبذلت في رعايتها كل جهد يمكن بذله حتى نمت وترعرعت وصارت طفلة جميلة تسعى على قدميها، ولما اشتد عودها حان وقت ذهابها إلى البيت الذي نُذرَتْ له، فانتزعت من منزل خالتها، لتؤدي دورها المقدّر لها من الله عز وجل، فكان حزنها عليها شديداً، لأنها سعدت بتربيتها وملأت عليها حياتها، وأحست من خلالها بالأُمومة التي افتقدتها وهي

(١) قول ابن عباس انظر صفوة التفاسير ج١ ص١٩٩.

(٢) المصدر السابق.

عاقر لا تلد، ولكن إيشاع صبرت، والصبر عزاء المؤمنات الصالحات اللاتي صدقن الإيمان واخلصن العبادة، واحتسبن كل ما يصيبهن لله الخالق سبحانه جل شأنه.

عاشت مريم في بيت المقدس، فكانت تجلس كل يوم في المحراب تحفظ التوراة، وتتعلم فروض الدين، وقد حباها الله إمارات التقوى والإيمان، ولذلك فقد أحس الأحبار وعلماء الدين نحوها هيبةً ووقاراً منذ الصِّغر، لِمَا بدا عليها من الورع والصَّلاحِ.

ظلت مريم في محرابها وعبادتها وتقواها وإيمانها تطوي الأيام طيّاً وتقلّب الشهور والسنين، وزكريا بن برخيا ﷺ زوج خالتها إيشاع يرعاها ويزورها من حين إلى حين، ويحضر لها ما تحتاج إليه من كسوة وطعام، وهي لا تلق بالاً لهذا كله إلا عبادتها ونسكها عاكفة عليها.

وكانت مريم منصرفة عن متاع الدنيا ولهوها، مقبلةٌ على التوراة تطالعها، وتقرأ فيها، وتتعلم تعاليمها، وتعمل بما فيها من تعاليم إلٰهية عظيمة.

وظل الحال على هذا المنوال إلى أن بلغت مريم سن العاشرة، وتحدَّث الأحبار عن صلاحها وتقواها، وأشادوا بها إشادة عظيمة.

أما زكريا فقد كان يرى سرٌّ لا يراهُ غَيْره، كان هذا السر يحيره ويبلبل أفكاره، إنَّه يرى شيئاً لم يعتاد أن يراه لبشر غير مريم ابنة عمران لربما يرقى هذا الشيء إلى المعجزة بكل مقاييس البشر وحساباتهم جاء هذا السر في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

يدخل زكريا على مريم في الصباح وفي المساء، وكلما دخل

عليها وجد عندها رزقاً، فاكهة وطعاماً، ووجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء فإذا كان العنب من فاكهة الصيف وجده عندها زكريا في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

سألها زكريا قائلاً: يا مَرْيَمُ؛ أنى لَكِ هذا؟!

قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاءُ بغير حساب.

احتار زكريا في أمرها، ولكنه مال إلى تصديقها، رغم أنه يعلم أنه لا يوجد هناك أحد يدخل على مريم وكذلك اختلاف موعد الفاكهة التي يراها في أطباق طعامها ثماراً طيبة كأنها قطفت من أشجارها لتوها وهي في غير موسمها، ومال زكريا إلى تصديقها، لأنّه ما عهد عليها كَذِباً، وإنه ليجد عندها فواكه الصيف في الشتاء، وفواكه الشتاءِ في الصيف، وما كان لأحد من النَّاس أن يمدها بهذه الفواكه في غير أوانها، وبعد كثرة تفكير وتقدير ألهمه الله صدقها وقداستها، وإيمانها الراسخ، فزاده ذلك حُبّاً لها واحتراماً لسرَّها العجيب.

ولما خرج زكريا من حجرة مريم، واختلى بنفسه مساءً، وقد رأى عند مريم ما رأى من رزق الله الرازق الوهاب، تمنى أن يهب له الله ولداً من صلاح مريم وتقواها وإيمانها، كما وهب مريم لأبويها عمران وحنة العجوزين المسنين بعد يأس وقنوط شديدين. عند ذلك ذهب زكريا إلى المحراب، وقد تملكته رغبة قويّة في الالتجاء إلى رب العزة بالدعاء والابتهال، فقال زكريا:

- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب، وسمعها تقول له:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾.

قالت الملائكة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؟!!.

قال: رَبِّ؛ اجْعَل لي آيةً أعرِفُ بها وَقْتَ وِلَادَتِهِ.

قالت الملائكة: إنَّ الآية أن يَحْبِسَ الله لِسَانَكَ ثلاَثَة أيام، فلا تستطيع التفاهم مع الناس إلاّ بالإشارة.

كفلها زكريا وجاء يحيى

رجع زكريا إلى زوجته، وأخبرها بدعائه، وبما كان من إجابة الملائكة له، فاستبشرت خيراً، وقالت:

لعل الله الذي رزق أختي مريم يرزقني بمثلها.

وكان رجاءً مؤمناً من إيشاع الراضية التقية المؤمنة بأن مشيئة الله لا رادَّ لها فإنه يقول للشيء كن فيكون.

وكان دعاءً مستجاباً لزكريا عليه السلام، وكيف لا تكون هناكَ استجابة من ربِّ العزة وهو الكريم الحليم الواهب القادر، وعبده زكريا المطيع القائم على سدنة بيت المقدس الكافل لمريم بل والذي اختير بمشيئة الله وقدرته لكفالة مريم فلم يغوص قلمه كما غاصت كل الأقلام، وظلت العناية الإلهية إلى جوار رغبته في كفالة مريم ونيله شرف كفالة هذا الاصطفاء والطهر، لأطهر وأطيب فتاة على وجه المعمورة، خير نساء العالمين مريم ابنة عمران عليها السلام.

ولم يمض شهران على هذا الدعاء وذاك الرجاء الطاهر حتى تحققت النبوءَةُ، وتحرك الطفل المبارك في أحشائها، وبعد بضعة شهور جاء يحيى ابناً لزكريا ونبياً مباركاً.

إلى الناصرة

كبرت مريم ونمت وأصبحت فتاة فارعة الطول، كاملة الأنوثة، وكثيراً ما كان يبدو على وجهها حمرة الخجل كلما رأت أحداً ينظر إليها.

وأصبح لها ما للفتاة البالغة من حيض، واستدارة جسم، ونمو صدر، وكان اليهود يعتبرون دم الحيض نجساً، ويحرمون على النساء والفتيات البالغات اللائي يحضن الإقامة بالمسجد.

نظر الأحبار إلى مريم فوجدوها في أنوثة كاملة، فقرروا الاجتماع للتشاور في هذا الأمر الذي أصبح بالنسبةِ لهم أمراً خطيراً شديد الخطورة.

وفي اجتماعهم اعتبروا أن أنوثة مريم العذراء وبلوغها مما يجعلها تحيض وقرروا أن مدّة النذر قد انتهى أجلها، وأنه قد حان تسريحها، لتخرج إلى أداء رسالتها في الحياة، أنثى ناضجة تتحمل مسؤولية الأسرة، فتعمل وتتزوج وتلد وتصبح أُماً شأنها شأن كل فتيات جنسها وكان ابن عمها يوسف النجار من أولئك الأحبار الذين حضروا هذا الاجتماع، وكان نجاراً يكسب من عمل يده، وكان مؤمناً عابداً ناسكاً. ولما انتهى مجلس الأحبار وأخذوا قرارهم بتسريح مريم وإخراجها لتواجه مسؤولياتها في الحياة، هرول يوسف النجار ابن عم

مريم العذراء إلى زكريا بن برخياﷺ ليحادثه في أمر ابنة عمه مريم العذراء بعد أن قرر الأحبار جميعاً تسريحها وإخراجها من سدانة البيت وقد بلغت عمر البلوغ للفتيات، ولما لحق يوسف النجار زكريا استأذنه في الحديث إليه، فأذن له زكريا.

فقال يوسف النجار: أرى أن تضمها إلى بيتك في رعاية خالتها إيشاع فهي ربيبتها وبمثابة أمها وأقرب الناس إليها.

قال زكريا مُرحِّباً: إن ذلك أحب أُمنية لي ولزوجتي، ولكنني بلغت الشيخوخة، فانظر كيف شاب رأسي، ووهن عظمي وتملكت الأمراض في جسمي، فمن يرعاها بعدي يا بني.

قال يوسف النجار: يرعاها خالقها أيها الحبر الأعظم، ورُبما هيأ لها زوجاً صالحاً يضمها إلى بيته، فهي من سلالة طاهرة مباركة.

فكر زكريا ونظر إلى يوسف النجار نظرة ود وإعجاب وابتسم قائلاً ليوسف النجار: يا يوسف يا بني، لا أرى أَصلح لها منك، فأنت ابن عمها؛ وأحقُّ الناس بها. ولقد نشأتما معاً على الصلاح والتقوى، والرضى والإيمان بالله عز وجل، فاتَّفَقَتْ مشاربكما وطباعكما في أشياء كثيرة وَأَجَّل ما فيها هو عبادة الله وطاعته وسدانة بيته وخدمته.

قال يوسف وقد بدا على وجهه الحياء والخجل الشديد حينما فاتحه زكرياﷺ في الأمر، فقال: إنّه لشرف عظيم لي، ولكنها متجهةٌ إلى الله سبحانه عز وجل، وليس في صدرها وقلبها وفؤادها مكانٌ لغير الله سبحانه جل شأنه، ولغير عبادته والعمل على طاعته ورضاه.

عندئذ قال زكريا بن برخيا: سأقنعها أن تذهب معك إلى الناصرة لتعيش في كنف عمتك وعنايتها.

قال يوسف: إن كان هذا أمرك وكانت هذه رغبتها فسوف أهب

نفسي لخدمتها وطاعتها ولا أطمع إلا في رضا الله عني بإكرامها وخدمتها ورعايتها.

وافق زكريا بن برخيا على سفر مريم وقبلت مريم السفر مع ابن عمها يوسف النجار إلى الجليل في الشمال، لتقيم مع عمتها في الناصرة، ولكي تواجه مسؤولياتها الدنيوية، وذلك لأن خدمة البيت جعلتها تزهد ما في الدنيا من متاع وزواج وما إلى ذلك من مسؤوليات الأنثى في الحياة.

وكانت مريم بسفرها هذا إلى الناصرة للإقامة مع عمتها، تريد أن تروّض نفسها على الزواج الذي تنفر منه.

واشترطت مريم أن تبقى عند عمتها عذراء بغير زواج عاماً كاملاً ولربما اطلع يوسف النجار على هذه الرغبة، فنزل على رغبتها ووافق على هذا الأمر لأنه وهب نفسه لخدمتها كما ذكر أمام زكريا عليه السلام وتعهد أن يهب نفسه لخدمتها فهو لا يطمع إلا في أرضاء الله عنه بإكرامها ورعايتها وحمايتها.

أجيبت مريم إلى رغبتها، ومضت في طريقها مع ابن عمها يوسف النجار. كان الطريق جميلاً تحفه الأشجار، وتفوح منه رائحة الليمون وزهور الموالح، ولربما قطف يوسف ثمرات وأهداها إلى مريم، وكانت مريم تتوقف أحياناً لتؤدي صلاتها، ولتسمع ترانيم الكون التي تسبح بحمد الله، وأحسب أن الملائكة كانت تحيط بهذه المصطفاة المطهرة على نساء العالمين، لتبارك خطواتها، ولتستعد لتزف إليها بشرى الأمومة العظيمة المدهشة الرائعة.

انطلق موكب الطاهرة تحيط به تسابيح وترانيم الطبيعة التي تسبح بحمد الله الخالق، وكانت مريم تشعر بهذه العظمة عندما يتمايل غصن

من أغصان الزيتون، أو يرف عصفور بجناحه، وقد خرج من ندى الصباح خماصاً قد خلت بطنه من الطعام لا يطلب من بشر عطاءً، بل يسعى إلى سد رقعة بين أشجار الجليل المتناثرة، وعلى أرضها المقدسة. اقترب الموكب المقدس من قرية الناصرة التي تكتنفها جبال الجليل، وبدت أكواخها وبيوتها الصغيرة وكأنها تريد أن تخرج من أحضان جبال الجليل لتضم مريم إلى أحضانها الدافئة المليئة بعبق المحبة والسلام. كان يوسف النجار خادم البيت وسادنه يسبح ويترنم بترانيم التوراة والتي كلما همس بها وسمعتها مريم أمنت عليها وانخرطت في تسابيح ملائكية تضيف إلى رقتها رقةً وحناناً وإلى طهرها عفةً وحياءً فتكون في إطارها الرباني الملائكي السامي المصطفاة من بنات جنسها ومن نساء زمانها.

اقترب الموكب البسيط فتاة تركب دابة ورجل صالح يمشي وراء دابتها مستغرق في صمت يتسمع من خلاله تسابيحه وترانيمه، لم يرع الناس بالاً لهذه الكوكبة الملائكية التي تدب على أرض الناصرة المقدسة واخترق الموكب المبارك القرية قاصداً دار عمة مريم الصغيرة الهادئة والتي ضمت بعضاً من ذرية آل عمران الطيبة الطاهرة المصطفاة من بين الناس جميعاً والمختارة من رب العزة والمفضلة على العالمين كما فُضِّل آدم ونوح وآل إبراهيم عليهم السلام أجمعين.

استقبلت مريم استقبالاً طيباً لأنها مريم ابنة عمران بن ماثان وبقية ذكراه الطيبة، احتضنتها العمة ولربما أذْرَفَت دمعة على عمران وحنة وها هي مريم بقية ذكراهما في الدنيا ونذر أُمها لخدمة البيت، واصطفاء ربها، هذه مريم وقد أعيذت من الشيطان الرجيم، هذه مريم في الناصرة تحمل كنز أسرار المستقبل التي لا يعلمها إلا خالقها، بدت للناس أجمعين فتاة عادية كأي فتاة في الناصرة، ولكن قدرها

معروف عند آل عمران العارفين بأنها كانت منذورة، عاشت طفولتها ومشرق صباها في المحراب كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً أقرت وهي لا تكذب أنه من عند الله يأتيها مباشراً بما فيه أسرار ومعجزات، أليست هذه الفتاة الطيبة الطاهرة معجزة؟

إنها معجزة بحق، معجزة الطهر، ومعجزة الاصطفاء.

أمّا يوسف النجار فإنَّه كان يحب أن يأكل من عمل يده شأنه شأن داود عليه السلام ذرية بعضها من بعض، ففتح حانوتاً يعمل فيه نجّاراً ويكسب من عمل يده.

كان الحانوت على مقربة من الدار التي تسكنها مريم العذراءعليها السلام لذلك فقد ظل يوسف النجار وفياً بعهده الذي أخذه على نفسه في رعاية مريم وخدمتها وطاعتها كلما أمرت بشيء، فهو يعرف مريم العابدة المنذورة، أكثر مما يعرف مريم زوجة المستقبل كما كان يظن وأكثر مما يعرف مريم أجمل النساء في وقتها، يعرف آيات الله في التوراة التي كانت تقرأها مريم، يعرف الأحبار وهو أحدهم الذين تنافسوا على شرف كفالتها وألقوا الأقلام ففاز زكريا بكفالتها عندما طفى قلمه على الماء ثلاث مرات ولربما حسده إخوانه أو اغبطوه على هذه النعمة والهدية المزجاة إليه. وكفاه أن يعرف أنها المستثناة الوحيدة والمستبعدة من بني آدم كلهم عن مس الشيطان، وذلك ما قاله الرسول العربي ﷺ:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من بني آدم مولود إلاّ يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها»**.

لكل هذا وقف يوسف النجار إلى جوارها عابداً قبل أن يكون

خطيباً طائعاً قبل أن يكون حبيباً، لقد أحب يوسف الطهر وأحب طاعة الربَّ من مريم عليها السلام.

ولكن ماذا عن مريم؟ وعن كيفية قضائها للوقت. . لقد كانت تسكن على مقربة من يوسف النجار ووجدت في غزل الصوف سلوة لها وهي تهمس بترانيم العبادة وتسابيح الشكر لله عز وجل.

وكانت تساعد عمتها في صنع الطعام، ترى فأي طعم طيب لهذا الطعام الذي كانت تصنعه مريم وهي التي كانت ترزق بأشهى أنواع الطعام وهي في محرابها حينما كانت منذورة لخدمة البيت، وبالإضافة إلى إعداد الطعام كانت تخرج لجلب الماء، فتخرج مع صاحباتها من فتيات القرية إلى ينبوع عذب ليملأْنَ جرارَهُنَّ كل يوم في الصباح لقد كانت تخرج إلى الينبوع كأي فتاة وادعةً، لكن وداعتها كانت تكتسب نور الهداية وسكينة الخشوع والعبادة الهامسة المطمئنة، وكانت تخرج إلى الينبوع وقد اكتست ثوب الطهر والجلال، ونتصورها بوجه صاف رائق جميل، يتواءم مع شفافيتها وجمال نفسها، وصفاء قلبها، وطيب منبتها الطاهر المطهر.

ومضت حياة مريم هانئة وديعة، لا تجد ما يعكر الصفو، تقعد من نومها مع تباشير الصباح المبكر، فتجد سماء الناصرة قد تلبدت بالغيوم لتفيض بالمطر على أرضها الطاهرة، فيصبح الشجر الأخضر مبتلاً بالماء، وتضربه الشمس فتزيد خضرته جمالاً وتفوح رائحة زهوره الجميلة الفواحة، ويؤتى ثماره في حينها.

وتمد يدها بالمساعدة إلى عمتها في إعداد الطعام الشهي، وتقديمه أو بعض منه ليوسف النجار. فيأخذه مباركاً طعمه وصنعه، ثم تركن إلى صلاتها وترانيمها، وتنفرد بمغزل صوفها، فيسترسل بين أناملها بخيوط الصوف الناعمة، نعومة أناملها الطاهرة الرقيقة، والتي تشارك في صناعة الدفء لتقي الناس البرد بغزلها المبارك.

مريم
حديث الملائكة

ربما تذكرت مريم نداء الملائكة لها، ان الله طهرك واصطفاك، فهو الذي تولى تطهيرك.. ظاهراً وباطناً، لأنه سبحانه عز وجل قد اختارك من دون نساء العالمين لتكوني موضع أغرب تجربة، في تاريخ البشرية، إلى يوم القيامة.

إنها تجربة تغيير النظام الطبيعي، إنّها تجربة خلق إنسان من غير أب ومن غير تلقيح.

بدا في حديث جبرئيل عليه السلام لمريم هذه المعاني، كرر النداء فجعل يقول: «يا مريم» ويكرر الاسم «يا مريم» كلما تحدث إليها أليس هذا التكرار دليل على دعوة مريم العذراء إلى الاعتناء بما سيأتي من حديث بعد هذا النداء بالاسم المبارك «يا مريم».

- يا مريم اسجدي لله سبحانه عز وجل.

وكانت البداية يا مريم اقنتي لربك، والقنوت هو تربية لنفسها وتوجيهها إلى مسارات الطاعة وطريق الرضى والقبول.

وقد قيل إنَّ أَمْرَها بالقنوت والركوع والسجود كان حفظاً لها من

الوقوع في مزالق التكبر والاستعلاء، فأصبحت على درجة عالية من التواضع الجم. كانت أوامر الله لها واضحة ومباشرة: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ العاكفين في بيوت الله، مع الراكعين من عباده الصالحين والذين هم أنبياء ورسل وأحبار، إنهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

وفي ركوعها وسجودها دعوة لها للسير بقلبها إلى الله، سيراً عظيماً لأن الركوع والسجود يعد تعبيراً صادقاً، لحقيقة ما في قلبها كان نداءً ملائكياً هو من الله يدعو مريم إلى القرب من الله ظاهراً بدوام الركوع والسجود، وبإدامة الصلاة. والسجود هو أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع لله لذلك دعيت مريم للسجود والركوع - فجاء السجود قبل الركوع لفضله: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

وذلك لما قيل في كتابه العزيز: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

وقيل في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، لقد امتثلت مريم لأمر الله، ودعوة الملائكة لها، فكانت قانتة ساجدة راكعة، بل إنها لما أُمرت ازدادت قنوتاً وسجوداً وركوعاً فظلت تقيم حتى يسيل القيح من قدميها»[1] وذلك من كثرة قيامها وسجودها وركوعها.

وقيل: «كانت مريم تصلي حتى تورم قدماها»[2].

كانت مريم وستظل حديث الملائكة، في طفولتها وصباها وعندما جاء عيسى ابنها.

---

(١) تاريخ الطبري عن الأوزاعي.
(٢) أخرجه ابن عساكر عن أبي سعيد.

البشرى

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦].

شرعت الملائكة في تبشيرها بعيسى عليه السلام، قال لها جبرئيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، عيسى يُخلق من غير أب، لأنه سيكون له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾». . هذا على خلاف أبناء آدم، ووضع رب العزة لهذه البشارة اسماً، فقال: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾» فجعل لها لقباً مشرفاً كلقب الصادق الأمين ولقب الفاروق.

وقد اختلف العلماء في وجه اطلاق لقب المسيح على عيسى عليه السلام فقال ابن عباس: لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلا بريء.

وقالوا: جعل لقب عيسى المسيح تشريفاً له عليه السلام، كالخليل إبراهيم.

وعيسى معرب أيشوع. . ومعناه السيد.

«وابن مريم» قيل ابن مريم تنبيهاً لمريم على أنه يولد من غير

أب، ولو كان له أب لنُسِبَ إليه وعلى ذلك تم تفضيل الأم فقيل عيسى بن مريم.

وفي قوله «المسيح عيسى»، واسمه عيسى. وسمي المسيح لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين، لا أخمص لهما، وقيل: لأنّه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله وقوله ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة إلى أمه، حيث لا أب له[1].

ولما سمعت مريم بشارة الملائكة لها عن الله بمولودها عيسى، قالت:

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

نحن الآن أمام حوار عجيب، توجهت فيه مريم مباشرة لمخاطبة ربها قائلة: يا رب، خاطبت عليها السلام ربها سبحانه وتعالى مباشرة، ولم تخاطب جبرئيل طرحاً للوسائط، في ذلك مبالغة في التضرع والرجاء، وجِدا في التبتل.

تقول مريم: كيف يكون هذا الولد مني، وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، و﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ والمسيس هنا كناية عن الوطء، وهذا نفي عام للتزوج وغيره، وهي الطاهرة المحصنة عن البغاء، الشريفة القانتة البعيدة كل البعد عن الفاحشة وقد قيل ان الله تعالى قال لمريم ذلك بلا واسطة مَلَك.

وقيل غير ذلك ـ قيل ان جبرئيل عليه السلام هو القائل، وهذا القول مبني على أنه تعالى جل شأنه لم يكلم غير الأنبياء، بل غير خاصتهم عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٤.

وأجابها الله عز وجل في سياق الحديث عن البشرى بعيسى المسيح عليه السلام، فقال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: هكذا أمر الله، عظيم لا يعجزه شيء، يخلق ما يشاء أن يخلقه من الخلق العجيب، الخارق للعادة، خلقاً مثل ذلك الخالق العجيب.. والصنع البديع.

وأكد سبحانه عز وجل ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يتأخر، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠] أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر[1].

هذه هي البشرى أو البشارة التي بشِّرت بها مريم وهي لا تدري متى ستكون وكيف كل ما هنالك أن مشيئة الله وقضاءه انصرفت ليكون هذا الفعل.

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٦٤.

الميلاد

تأخرت مريم يوماً عن زميلاتها، فلما ذهبت إلى الينبوع لتملأ الجرة، وجدت نفسها وحيدة، وأحسَّت وحشة ورهبة، واضطرب جسمها فجأة، فشعرت بالخوف، وأقبلت على الماء مسرعَةً تُرَدِّدُ أدعية الصلاة، لقد تنحت واعتزلت من قومها مكاناً في الدار مما يلي الشرق، وكان يوماً شاتياً، تلبدت فيه الغيوم، واشتد البرد وجلست على شاطىء النبع تغسل رأسها، وقيل: إنها طهرت من الحيض فذهبت للغسل[1] فضربت ستراً وتجردت للغسل من الحيض، وفيما هي على هذه الحال، وقد تطهرت وعادت مسرعة تردد أدعية الصلاة وإذا شابٌ قويٌ، وسيمُ الطلعةِ، جميل الهيئة، ينظر إِلَيْهَا، كأنما خرج من الأرض.

ذعرت مريم ذعراً شديداً، وتوقعت شرّاً ينزل بها، فلما رأته يقصد نحوها نادته من بعيد وقالت وهي تشير إليه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

ذلك الشاب القوي، الوسيم الطلعة، الجميل الهيئة، الذي كان

(١) انظر معالم التنزيل، وانظر الروضة الفيحاء في تواريخ النساء ص١١٧.

ينظر إليها هو جبرئيل عليه السلام، لقد رأى تخوفها وانزعاجها فبادرها قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

احتارت مريم في أمره، وخافت أن يكون بشراً أراد بها سوءاً، وأرادت الهرب، فهبط عليها إلهام من الله، وسكينة ورضى وإذا هي واقفة في ثبات أمام الملك وفي اطمئنان، ثم رأت صَفّاً من الملائكة عن يمينها، وصفا عن شمالها، فهدأت نفسها، وذهب خوفها.

قالت الملائكة: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

والوجيه هو ذو الجاه، والشرف والتقدير الشريف العظيم، وجيهاً في الدنيا، ووجاهته في الدنيا بالنبوة والتقدم على الناس، وفي الآخرة بقبول شفاعته وعلو درجته.

وقيل: وجاهته عليه السلام في الدنيا بقبول دعائه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

وقيل أيضاً: وجيهاً بسبب أنه كان مُبَرءاً من العيوب التي افتراها اليهود عليه.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله يوم القيامة، وقيل: ومن المقربين هو إشارة إلى رفعه إلى السماء وصحبته الملائكة.

وقيل: من المقربين من النّاس بالقبول والإجابة أي: ومقرباً من جملة عظماء المقربين.

نعود إلى مريم وحوارها مع جبرئيل.

قالت مريم: رَبِّ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾؟ نعم لقد

قالت متعجبة: كيف يكون لي غلام ولست بذات زوج، ولا زانية؟![1].

قال جبرئيل: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

تلقت مريم هذهِ البشارة العظيمة بخوف شديد وفرح أشد، إنَّ الملائكة يبشرونها بولد يكون نوراً وهدًى للناس، ورسولاً إلى بني إسرائيل. يا له من أمر عجيب، وشرف عظيم، وتشريف سامي لمريم وابنها رفعت رأسها أمام جبرئيل وقالت: ها أنذا أمة الله، مطيعة له راضية بما قسم لي، ليكن ما يريد الله.

تقدم جبرئيل عليه السلام، ونفخ في جيبها، ثم اختفى عنها مع الملائكة بعد أن وهبها وديعة القدوس الأعلى.

وما كان حديثاً يفترى على مريم بل جاء به العزيز الحكيم يقصه على نبيه محمد ﷺ في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨].

وذكر أن جبرئيل قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩].

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٥ الآية رقم ٢٠ من سورة مريم.

فقالت مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠].

ثم رفع جبرئيل درعها فنفخ في جيبها فحملت حين لبست درعها. وقيل نفخ في كم قميصها، وقيل: في فيها، نفخ من بعيد فوصل الريح إليها فحملت[1] وبعد قليل من الزّمن نتخيل العذراء قد أُحيطت بسر هائل لم تعهده امرأةٌ سواها من قبل، فالجنين يتحرك في بطنها، وأمرها صائر إلى الفضيحة، وهي العذراء الصالحة التي عاشت عُمرها طاهرة نقية مطهرة ومصطفاة من رب العالمين على نساء العالمين.

وعن حملها قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحمل والولادة في ساعة واحدة.

وقال مقاتل بن سليمان[2] حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعته في ساعة، وعمرها عشر سنين.

والأرجح أنها حملت به حملاً عادياً تسعة أشهر والله أعلم.

---

(١) انظر الروضة الفيحاء ص١١٨.

(٢) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي - من بلخ - من أعلام المفسرين، انتقل إلى البصرة، دخل بغداد فحدث بها وتوفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ - انظر الأعلام ج٨ ص٢٠٦.

في بيت لحم

لم تطق مريم البقاء بحالتها هذه في الناصرة، فأسرعت بالعودة إلى جبال حبرون، لتكشف سرّها إلى امرأة مثلها، تثق فيها، وتطمئن إليها، وتلاقت مريم مع خالتها إيشاع، فألقت إليها بسرها الرهيب. كانت إيشاع زوجة زكريا قد حملت هي أيضاً، بعد أن استجاب الله لدعاء زوجها، فروت كل منهما قِصتها، وتحدثتا بغرابة حَمْلهما، ومكثتا معاً ثلاثة أشهر في هذا البيت الهادىء على سفح الجبل.

وفي ليلة كانتا نائمتين على سرير واحِدٍ، فاستيقظتا على نداءٍ سماوي ألهمهما أن الطفلين كانا معاً في إتمام القصد الإلهي، ونزل هذا الخبر على قلبي مريم العذراء، وإيشاع زوج زكريا برداً وسلاماً.

١ ـ أشياء قبل الخروج

ما هي إلا أيام قليلة حتّى عادت مريم العذراء المباركة إلى الناصرة، وهي الفتاة الباسمة المشرقة، الرائعة الجميلة، فقد أصبحت تعيش في عالم جديد أكثر اتصالاً بالله عز وجل، تفكر طويلاً بفرح ممزوج بالخوف، وتعيش سرّاً إلهياً عظيماً، هذا السرَّ حينما يذاعَ يحتاج إلى معجزة من الله لكي يصدِّقه البشر ويستوعبوه لأن السر فيه ليس في الحمل والولادة ولكن في ناموس الطبيعة الذي جُبَل الناس

على فهم الحمل والولادة إنما يشترك فيه رجل وامرأة فهو الأب وهي الأم أما معجزة مريم وآيتها أن لا أب من بني البشر لوليدها القادم، ألا يعلم هؤلاء أن الله خلق آدم من تراب وهو جل شأنه قادر على أن يخلق عيسى من تراب، بل ومن عدم ان أراد هو أن يقول لهُ كن فيكون سبحانه عز وجل وقد بين الله عز وجل مَثَل عيسى في الخلق فقال عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

أي: أن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب ـ وهو في بابه غريب ـ كشأن آدم ـ ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: خلق آدم من غير أب ولا أُم ثم قال له كن فيكون، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم(١).

ويقول رب العزة مؤكداً على هذا: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

أي: هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكّين يا محمد.

وقال للرسول ﷺ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من جادلك في أمر عيسى بعد ما وَضَحَ لك الحق واستبان.

فقال يا محمد: ﴿تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾.

أي: هلموا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة.

---

(١) صفوة التفاسير ج١ ص٢٠٦.

وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وعلياً وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

وقول عز وجل بعد ذلك: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى، فلما دعاهم عليه السلام إلى المباهلة امتنعوا ودفعوا الجزية(١).

وفي هؤلاء(٢) قال ابن عباس: لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ: «لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً».

وقالوا: إن من ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته عليه السلام(٣).

عادت العذراء المباركة من جبال حبرون إلى الناصرة، وكانت تلحظ مع الأيام كبر بطنها، ممّا كان يزيد في توترها.

ولما انتفخت بطنها، بدأت تفطن إلى الريبة التي تخامر قلوب المحيطين بها، وبدأت تنتبه إلى الشك الذي يساور هؤلاء وهؤلاء.

فكانت تفكر في ذلك طويلاً، وأصابها من جراء التفكير فيه أرقاً وسهراً بدا على وجهها شحوباً منه..

واستمر هذا الأمر يزعج مريم العذراء ويطيل تفكيرها إلى أن استقر عزمها على أن تكشف سرها إلى ابن عمها يوسف النجار،

---

(١) انظر صفوة التفاسير ص٢٠٦.

(٢) النصارى الذين قالوا أن لعيسى أب.

(٣) البحر المحيط ج٢ ص٤٨٠.

وكان يوسف النجار أشد الناس بِراً بها وحرصاً عليها، وثقة في طهارتها وطيبها، وعفة نفسها، وشدة حيائها.

أرسلت مريم العذراء إلى يوسف النجار، وألقت إليه بسرِّها الذي كان حملاً ثقيلاً عليها.

قلنا ان البشر يحتاجون إلى معجزة تقنعهم بسر مريم العذراء وما آلت إليه من أمر يخرج عن فهم البشر.

ولذلك فقد وقع الخبر على يوسف النجار وقوع الصاعقة، فشك في أمرها وهو أعلم الناس بعفتها وطهارتها، ذلك لأنه بشر لم يتطرق ذهنه ولم يخرج عن حدود تفكير البشر في وجود الأب والأم حتى يكون هناك ابن، فلا يكون ذلك في نظره إلا ثمرة زواج وإن لم يكن فإنه يكون من ثمار البغاء والعياذ بالله.

عاد يوسف إلى منزله حزيناً كئيباً غاضباً، حائر بين الدهشة والصدمة وحائر بين ثقته في مريم وعفتها وطهرها وبين ما يراه واقعاً ماثلاً أمامه وقد افضت هي إليه بالسر وبدت بطنها منتفخة.

أوى يوسف النجار إلى فراشه شارد الفكر مضطرب الفؤاد، فطار النوم من عينيه وعصر الحزن قلبه وظل يفكر في هذا الأمر طوال ليله.

وفي هدوء الليل، وبينما كان يوسف النجار يتضرع إلى ربه بالدعاء أن يهديه إلى سبيل الرشاد، ويعلمه بحقيقة ما كان من أمر مريم الطاهرة المصطفاة العفيفة المنذورة لخدمة بيت الله، والأنثى الوحيدة التي ظلت في المحراب يأتيها رزقها من الله طيباً مباركاً، والأنثى الوحيدة التي أعاذها الله من مس الشيطان، فتقبل دعوة أمها امرأة عمران التي نذرتها محررة خالصة وهي في بطنها لطاعة

الله وخدمة بيته، أحقاً ما هي فيه مريم العذراء، أم بغاء والعياذ بالله. كان يوسف النجار معذوراً في حيرته، لكن يقينه بالله وثقته في أن لمريم شأن في طاعة الله ورضاه جعلاه ينتظر أمراً لا يدري ما هو؟!

وفي هدوء الليل وزحمة الهواجس عند يوسف النجار واضطراب الفكر الذي كان يصارع ترانيم يوسف وابتهالاته هبط الوحي الإلهي على هذا الرجل الحائر في أمر ليس بمقدوره أن يكشف سره، والمعذب من أجل هذه الفتاة الطيبة الطاهرة، وصاحب القلب الجريح مما أصاب مشاعرِهِ من أمر لا يقبل إلا بالريب رفيقه وبالشك صاحبه.

هبط الوحي، وانبأ يوسف النجار بحقيقة هذا الوجيه القادم، والمولود المعجزة، والجنين المبارك، فهب يوسف من نومه، مستغفراً ساجداً، شاكراً لأنعم الله عليه، أن أفاء عليه بسر هذا الأمر وأنعم عليه باليقين بعد الشك، والهدوء بعد الاضطراب والعلم بعد الجهل.

آمن يوسف النجار بحقيقة ابنة عمه مريم العذراء، عرف أن هناك أمراً ربانياً ينتظر مريم وابنها القادم، وأسرع إليها في منزل عمتها ليعتذر لها عن شكِّه وريبته في أمر حملها، ولم يكتف بهذا بل بث في نفسها الطمأنينة، ثم عرض عليها أن يضمها في بيته ليستر أمرها وليحميها من نظرات المتطفلين، ويحظى بشرف رعايتها كما يرعى الزوج زوجته أذعنت مريم لإلحاح عمتها، وأحست بالطمأنينة والأمان إلى جوار يوسف النجار ابن عمها، وقبلت عرض يوسف النجار وذهبت إلى بيته، فاتمت مدة الحمل، وقد كان يوسف النجار يطمئن عليها ويقوم على خدمتها وقضاء حاجياتها.

كان على يوسف أن يبذل جهداً عظيماً لكي يعالج هذا الأمر بما

يرضي ابنة عمه مريم العذراء ابنة عمران، لقد احتاج إلى إجراءات شديدة في الكلمات والسرية ليخفي أمْرَها، ويمنع سوء القالة عنها.

ورغم كل هذا رأى يوسف النجار أن الأمر لن يكون مريحاً له ولمريم إلا إذا خرجت من الناصرة وسافرت إلى جهة أخرى بعيداً عن الناصرة، فقد أكلتها عيون النّاس رغم السرية التامة ومكوث مريم بحملها في دار يوسف النجار الطاهرة.

قرر يوسف النجار السفر بمريم العذراء لتضع مولودها، بعد أن استشارها وأخذ مباركتها لهذه الخطوة، فرغبت مريم العذراء في أن تترك الناصرة، لتضع مولودها بعيدة عن الناصرة وأهلها، ولكنها خشيت مشقة السَّفر، وفي الوقت نفسه خشيت أن يفاجئها المخاض وهي في الناصرة، فيحدث ما لا يحمد عقباه، لذلك فقد أسرع يوسف النجار، بمباركة السيدة مريم العذراء عليها السلام في الإعداد لهذا الأمر وهيأ الله عز وجل الفرصة للسفر.

٢ ـ الطريق الوعر

كان القيصر «اغسطس» حاكماً جباراً لهذه البلاد، فاصدر أمراً إلى جميع البلاد التي اشتمل عليها ملكه الواسع، بتسجيل وعدّ الناس، وكتابة اسمائهم في سجلات كل دولة أو بلد من بلاده، وهدد كل من يتخلف عن التدوين، تدوين اسمه، وأسماء عائلته بالعقاب الشديد.

والحق يقال إنها كانت فرصة لمريم عليها السلام وليوسف النجار، فقد سافر الناس من الشمال والجنوب إلى أورشليم، لتدوين أسمائهم، فكنت ترى الطرق مزدحمة بالمسافرين. مالت الشمس إلى الغرب، وظهرت جبال موال بلونها القرمزي، تشرف على الطريق الممتد في

بطن الوادي، حيث يُشاهد القادمون وقوافلهم المسافرة، جاؤوا من بلاد الجليل في الشمال وقد بدت عليهم مشقة السفر، وبدا عليهم أثر التعب، وأضناهم السفر الطويل.

ومن بين هذه القوافل المتناثرة على جنبات الطريق كانت مريم العذراء على دابة يمسك بمقودها يوسف النجار، وكان يوسف يبدي اهتماماً عظيماً بها.

مضت مريم العذراء، وصاحبها وابن عمها يوسف النجار في طريقهم يطوون الطريق طيّاً، ليقيدا اسميهما شأنهما شأن الناس ولربما أرادا الاختفاء عن قومهما خشية الفضيحة، وقت ولادة مريم. اقترب ركب مريم العذراء، ويوسف النجار البسيط الهادىء من بيت لحم، وشعرت مريم بمقدمات الوضع وبدا على وجهها الألم والإجهاد، فمال يوسف بها إلى بيت لحم، وأنزلها بالقرب من كهف كبيرٍ، قد استعمله الرعاة في بيت لحم مكاناً للراحه من قديم الزمان ومربطاً للماشية والأغنام، فجلست مريم بجوار جذع نخلة تستريح من وعثاء السفر وعنائه، وذهب ابن عمها يوسف النجار إلى أورشليم، ليستأجر لهما مكاناً ينزلان فيه، يكون مناسباً لسكن مريم العذراء ولكي تستطيع وضع مولودها فيه براحة وطمأنينة خشية من هذا العراء الذي تركها فيه وهي على وشك الوضع، وقد هاجمها المخاض في موجاته الأولى من وجود يوسف النجار.

أما يوسف النجار يبحث في المدينة وهو مضطرب يريد أن يعود مسرعاً كي يلحق بابنة عمه التي تركها وحيدة في هذا المكان الموحش على حسب ظنه، وما كان في أورشليم مكاناً يصلح لراحة حبلى في شهرها الأخير، ومواجهة مخاضها الأول، وذلك لكثرة الوافدين على المدينة وشدة ازدحامها بهم.

٣ ـ المخاض

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣].

كانت مريم وحيدة هناك بجوار نخلة معمرة، وأمامها جدول صغير من الماء العذب يسري ماؤُهُ، فقاستعليها السلام مرارة الوحدة وقت الولادة، فهي فتاة صغيرة لا خبرة لديها في هذا الأمر، ولم يكن إلى جوارها من يقف معها في مثل هذه الظروف كالأم أو الأخت أو الخالة أو حتى القابلة.

وألجأها المخاض إلى جذع النخلة، فاحتضنت الجذع لشدة الوجع فولدت عيسىعليه السلام، وقالت صارخة عند ولادته:

﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

تمنت لو أنها ماتت قبل الحمل، وكانت شيئاً نسياً أي شيئاً تافهاً، شأنه أن ينسى ولا يعتد به، منسياً لا يخطر على بال أحد.

وإنما قالت ذلك لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقها قومها في خبرها عنه(١).

وقامت مريم إلى الجدول فغسلت وليدها ووضعته في قطع قماش، استقبلت السماء ميلاد عيسى استقبالاً عظيماً، فقد استقبلته بمظاهر البشر والترحيب، وسطع نور الله عز وجل على مهد هذا الوليد المبارك واستسلمت مريم بعد هذا المجهود الشاق لضعف ألمَّ

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٧، تفسير ابن عطية ج٩ ص٤٤٦.

بها، فرأت مظاهر الحفاوة والتكريم لهذا المولود العظيم والذي بُشرت به مريم، رأت ذلك الكوكب الذي يتلألأ في السماء فوق مهد الطفل، وسمعت ترتيل الملائكة الذين جاؤوا يحفّون بالمولود، يسبحون ويهللون ويهتفون بالتحية لمولده، وشاهَدَتْ هذا النور الذي انبثق من السماء إلى الأرض، يعلن للناس أجمعين عن مجيء رسول المحبة والسلام، ورجل الخلاص من الظلم والاستعباد وظلام الجهل والضلال والفساد.

نظرت مريم إلى طفلها الوليد، وقد استردت بعض نشاطها، فرأت في عينيه العطف والاستفهام، ووجدت قلبها يدق بالذكريات الأليمة التي ألمت بها، والصور الأليمة، التي سيطرت على تفكيرها وخاصة حينما تلتقي بأهلها وذويها.

تساءلت مريم في حزن شديد، كيف أرد على التهم التي ستنهال عليّ؟! وظلت تفكر في ذلك كثيراً، فانتابتها موجة من الضيق، ونكست رأسها، وترقرقت دمعة في عينيها، حاولت ابعاد الوساوس عنها، قالت كلمتها الحزينة وتمنيها اليائس: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾.

ودعت ربها، العالم بحالها، الغني عن سؤالها، قالت: يا رب ألهمني الرشاد، يا رب خلصني مما أنا فيه.

تملكت مريم العذراء حيرة شديدة، فهذا المكان الموحش من أين يأتي لها الطعام، كيف تظل بدون طعام، فوليدها يحتاج إلى الرضاعة، وهي تحتاج إلى الطعام، وإذا عادت إلى أهلها وذويها في الناصرة، أو إلى اقربائها في بيت لحم، فسيرمونها بالسوء ويقذفونها بأبشع التهم أشكالاً وألواناً لا حصر لها.

بكت مريم، وأظلمت الدنيا في عينيها، وساءت الحياة أمامها، وفيما هي على هذه الحال جاءها الحل من السماء، من رب العزة الذي لن يتركها بل سيمد إليها يَدَ الرحمة وأسباب الحياة والطمأنينة فهو خالقها ومصطفيها ومطهرها. جاء الحل من نداء مبارك قيل أنه لجبرئيل عليه السلام كان يقف في مكان أسفل من مكانها، وقيل انه عيسى الذي ولدته، ناداها باسمها: يا مريمُ، لا تحزني، قد جعلَ رَبُّك تحتك ماءً سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقِط عليك رطباً جنياً، فكلي من الرطب، واشربي من الماء، وتوكلي بعد ذلك على الله، فهو نعم المولى، ونعم النَّصير.

سمعت مريم هذا النداء السماوي العظيم يتردد على أُذُنِها، فكان بَرْداً وسلاماً على قلبها، أعاد إليها الثقة والطمأنينة، واذهب عن نفسها الخوف والفزع والحزن.

شربت مريم من ماء النبع، وهزت بجذع النخلة وجمعت ما وقع منها من التمر، ثم أقبلت على وليدها الطفل الجميل، فنظرت في وجهه وأحست براحة ما بعدها راحة ووجدت دفء الأمومة شعور جميل ينتابها، فانزاح عنها هذا الكابوس الثقيل الذي سيطر عليها وعلى تفكيرها قبل ميلاد عيسى عليه السلام وبعد ميلاده، لقد استسلمت لقضاء الله، وآمنت بأنه لا راد لقضائه سبحانه وتعالى. وما أن خرجت من هذه الحالة حتى أقبل عليها ابن عمها يوسف النجار من أورشليم وكان قد سمع حديث الناس حول ظهور النجم الأكبر، وتساؤلهم عن آيات ظهور المسيح المنتظر الذي بشَّرتْ به التوراة.

جاء يوسف النجار خائفاً قلقاً متلهفاً لرؤية ابنة عمه، فوجدها صحيحة سليمة نشيطة، تسعى بخفة بين مذاود الماشية في الكهف وينبوع الماء فتغسل الخرق، وتنشرها على أشعة الشمسِ، وقد حباها

الله برضاه وحماها من كل سوء، فلما رأته سعيداً برؤيتها، وفي عينيه أسئلة عما حدث معها وهل وضعت وليدها أم لا؟ ومن يكون؟ أهو حي أو ميت؟

كل هذه الأسئلة أجابت عليها مريم بإشارة إلى المِذوِد، فأسرع يوسف إليه، فوجد طفلاً جميلاً، وقف يتأمل وجهه الجميل المشرق أحس يوسف بأهمية هذا المولود، وشعر ببركته عندما رأى آيات الله واضحة بينة تحف بمجيئه، واستعاد إلى ذهنه ما سمع من حديث القوم، فأقبل على هذا الطفل يقبله، ويترنم له بترانيم توراتية يحفظها.

وبدأ يوسف النجار يعطي كل وقته، ويبذل كل جهده لرعاية هذا الوليد الذي خرق ناموس الحياة، وأمه السيدة مريم ابنة عمران عليها السلام كان يوسف النجار رجلاً صالحاً تقياً نبيلاً، كشف الله عن بصيرته، وألهمه الحقيقة والصواب.

وقضت مريم نفاسها في هذا الخلاء الفسيح الهادىء، فكانت سعيدة هانئة، وقد أحبت هذا المكان، وراضت نفسها على الإقامة فيه، وكان يوسف النجار يقضي حوائج مريم فيشتري لها ما تحتاج من طعام وخبز وحينما يعود من أورشليم، يجد التمر حول نخلة مريم كثيراً، لقد جادت بتمرها، بعد أن أصابها الكبر، ونخر فيها السوس، لقد بعثت فيها الحياة مرة أخرى فشب عودها، وتمكن جذعها، واخضرت أوراقها من أجل مريم وبإرادة الله عز وجل.

لم يدم الحال على ما هو عليه، فقد انتهت مدة النفاس، وحان موعد الرحيل إلى المدينة، ولذلك فقد عاود القلق مريم من جديد، وانتابتها الوساوس، عما سيقوله النّاس عن وليدها، وكيف ستواجه شكهم وريبتهم، وليس أمامهم سوى الشك والريبة، وهم يرون أمراً لا تقره عقولهم البشرية، إلا بمعجزة من الله سبحانه عز وجل.

معجزة الطهر والبراءة

كانت مريم العذراء عليها السلام في حاجة حقيقية إلى معجزة تبرر من خلالها هذه الثمرة المباركة من السماء والتي أرسلها رب العزة لتحمل مسؤولية طاعة الله وطاعة الأُم ودعوة الناس للمحبة والسلام. وفيما هي غارقة في همومها ودعائها المستمر إلى ربها بأن يجد لها مخرجاً ويكون لها عوناً، وتكرر الدعاء والابتهال من مريم عليها السلام وأصبح دعاءها تضرعاً وخشية، فكانت تهمس بالدعاء بشفتيها، وتذرف الدموع خوفاً وجزعاً مما هي فيه، فيا رب، يا خالق كل شيء، يا قادراً على صنع المعجزات تقول للشيء كن فيكون اجعل لمريم مخرجاً مما هي فيه، ليس بكثير على قدرتك صنع المعجزات، هؤلاء الذين تخافهم مريم هم عبادك وخلفاؤك في الأرض، وهذه مريم التي اصطفيتها وطهرتها تدعوك سنداً وناصراً وهادياً، سبحانك أنت أرحم الراحمين.

كان الدعاءُ مستجاباً، والابتهال مقبولاً، والخشوع والتضرع مشكوراً إنه من مريم ابنة عمران العذراء المنذورة لخدمة بيت الله، فكيف لا تجد استجابة، وكيف لا يقبل دعاءها ولا يستجاب لرجائها.

جاءت الاستجابة من الله تقول:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

والصوم هنا بمعنى الصمت، صامت عن الكلام، فلن تكلم أحداً سمعت نداء ربها، قال لها يا مريم صومي اليوم عن الكلام، فلا تكلمي اليوم أحداً من الناس، والله عز وجل يتولاك برعايته.

كان هذا الهاتف وكانت هذه الكلمات المباركة التي حملها جبرئيل عليه السلام سلاحاً اطمأنت به مريم، وأحست أنَّ الله عز وجل قد وقف إلى جوارها ليدافع عنها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

صدعت مريم للأمر، ونذرت للرحمن صوماً وقالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

فرغ يوسف لتوه من حزم الأمتعة والاستعداد للسفر، لقد حملها على دابته، ثم دعا مريم للركوب، فركبت دون أن تحرك شفتيها بكلمة واحدة. لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام، فلن تكلم اليوم أنسياً.

اتجهت مريم بوليدها عيسى عليه السلام إلى جبال حبرون، في منطقة الشمال «الجليل» وجاءت به قومها تحمله، وما إن رأوا الطفل تحمله بين يديها وتحتضنه لينال دفء صدرها، قالوا مقالة كانت تزعج مريم عليها السلام وهي تفكر في لحظتها وساعة حدوثها ـ قالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، وأمراً منكراً؟!

مريم صائمة عن الكلام، سكتت مريم ولم تقل شيئاً للدفاع عن نفسها، فقد كانت مطمئنة، تنظر إليهم نظرة ثقة واطمئنان، وفهموا سكوتها على أنها ارتكبت خطيئة، وأحدثت حدثاً شنيعاً فعجزت عن الكلام والدفاع عن نفسها، فأضافوا ما يؤكد اتهامهم ويبين حزنهم

على ما يروه من مريم الآن وفي ظنهم الفاحشة والسوء لأنهم بشر لا يدركون المعجزة قبل أن تفاجئهم الحقيقة قالوا لمريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾.

تحدثي يا مريم، انطقي وتكلمي ودافعي عن نفسك، كيف أحدثت هذا الحدث، كيف جئت بهذا الطفل الوديع الجميل؟!

ولكن مريم العابدة المطمئنة تلتزم بطاعة الله والالتزام بأوامره لقد أمرها رب العزة بالصوم عن الكلام، وها هي صائمة عن الكلام لا تستطيع الكلام وإلا ستقع في معصية الله.

ألح الناس على مريم، وعلت أصواتهم بالسؤال والضجيج، ولربما الغضب الشديد لكرامتهم وعزتهم التي ظنوا أن مريم قد داست عليهما ومزقتهما شرَّ ممزق، وهم أهل الشرف والطهر.

وفيما هم على هذه الحال، أشارت مريم إلى طفلها وهو في المهد، نائم في فراشه، ملفوف في خرق من قماش ـ أشارت إليه. استغرب القوم إشارتها واستهجنوا استهانتها بهم على حد قولهم فكيف تشير إلى طفل في المهد، وكيف يتكلم الطفل من المهد.

قالوا: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾؟!.

تكلم المسيح عليه السلام، وهو ملفوف في قطع القماش فقال:

﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذه المعجزة التي أحست بها مريم قبل أن تقع، وإحساسها هذا

هو الذي جعلها تحمل طفلها وتذهب به إلى أهلها.

كان لديها الحيثيات والأسباب، فقد روي أن مريم اطمأنت بما رأت من: تساقط الرطب بهز جذع النخلة.

وبالنهر الذي أخذ يجري تحتها بعد أن كان جافاً.

وبنداء جبرئيل أو عيسى من تحتها.

علمت مريم بدلالات هذه الآيات أن الله تعالى سيبين عذرها وبراءتها مما يجدون من ولادتها هذا المولود، وهي ليست ذات زوج أتت بولدها عيسى تحمله من المكان القصي البعيد الذي انتبذت فيه وولدت فيه، وروي أن قومها خرجوا في طلبها، كما خرجت هي في طلبهم، فلقوها وهي مقبلة، فلما رأوها كذلك اعظموا أمرها واستنكروه جداً لذلك قالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أي منكراً شنيعاً عظيماً[1].

واتجه القوم إلى التوبيخ لمريم وهي الطاهرة العفيفة قالوا لها: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وهارون هو أخو موسى وكانت هي من نسله، وقيل نسبت مريم إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت مريم تقاس بهذا الرجل من زهده وعبادته.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

أنت يا مريم من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهد، فما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة، فأبوك رجل صالح وما كانت أمك بغياً تبغي الزنا، إنها حنّة التي نذرتك وأنت في بطنها محررة الطاهرة الطيبة، فكيف صدر منك هذا الفعل وكانت إشارتها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٣ ص١١٨.

لعيسى مبعث دهشتهم، وتجمد الشر في عقولهم وبدأوا ينظرون لفعل يخالف ناموس حياتهم، هذا الفعل هو طفل في المهد لم يكمل أيامه الأولى في الميلاد، يتكلم بصوت عال لقد ازدروا إشارتها إليه، وظنوا أنها تستخف بهم وهم البشر الذين ما عرفوا لطفل المهد كلاماً قبل ذلك. وكان حديث عيسى معجزة للطهر والبراءة، وتشريعاً عظيماً سنّه رب العزة على لسان عيسى عليه السلام، ويعد سلوكاً لكل مؤمن وحكمة يقتدى بها وأمراً ربانياً وجبت طاعته والالتزام به، حدد عيسى عليه السلام هويته، ثم عدد خلقه وسلوكه الذي أنعم الله به عليه فقال:

- ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

أول شيء نطق به عيسى عليه السلام إقراره بالعبودية لله تعالى وإعلان هذا الإقرار، وبهذه نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، كما برأ السيدة مريم من الظنون الباطلة، وقال: أتاني الكتاب أي الإنجيل، وجعلني نبياً يوحى إليَّ ما يشاء[١].

- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١].

ومبارك أي كثير الخير أينما وجدت ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له[٢].

وأمرني بالصلاة والعبادة وإنفاق المال زكاةً عن مالي ما عشت على وجه هذه الدنيا.

ونظر عيسى عليه السلام نظرة طفولية باسمة إلى أمه فبادلته هذه الإشراقة شاكرة الله عز وجل، وقال عيسى عليه السلام الطفل في المهد ـ: ﴿وَبَرًّا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٢ وتفسير ابن كثير ج٣ ص١١٩.

(٢) تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٣.

﴿بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ لقد أوصاني ربي ببر والدتي ولم يجعلني مستكبراً عن طاعته وأمره وعبادته وبرّ والدتي فأشقى بذلك - وقال بعض السلف: لا تجد عاقاً لوالديه إلاّ وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٢٠.

الرسول ابن العذراء

انتظر اليهود ميلاد المسيح كثيراً، لأنهم قرؤوا في كتبهم القديمة أن نجماً يلمع في السماء، وأنوار تشرق في أفق مدينة أورشليم ليلة ميلاد المسيح المنتظر الذي ينقذ بني إسرائيل، ويقودهم إلى الخلاص.

وقد وُلِدَ أطفال كثيرين في تلك الليلة التي سطع فيها النجم، وأشرق النور، فاتجهت أنظار الأحبار إلى تفقد المواليد، فلم يجدوا شيئاً وخاب أملهم، لأن العلامات التي جاءت في كتبهم عن الطفل وأُمِه لم تَصْدُقْ على أحد من الأطفال الذين عرضوا عليهم.

أما عيسى فإن أقرباء مريم جعلوا ميلاده سِرّاً، خوف العار والفضيحة وكتموا أمره عن النّاس، وإن كانوا قد اثبتوا ميلاده في دفاتر مواليد تلك الليلة، ولقد استبعد من يعرفون ميلاد المسيح أن يكون هو المسيح المنتظر، لأنهم شكّوا في طهارة مريم العذراء، وكانت تلك الصدمة كفيلة بأن تجعل تفكيرهم بعيداً عن ابنها عيسى عليه السلام.

لذلك لم يعرضوه على الرهبان، كما كان يُعْرضُ أمثالُهُ من الأطفال الذين ولدوا معه في تلك الليلة، ليعرفوا أيهم الذي كرَّمهُ رَبُّهُ من بينهم بهذه الظاهرة العجيبة.

المجوسيان وعيسى

عامين كاملين مر على حادثة النجم والبحث عن الطفل الذي وُلِدَ في تلك الليلة التي تلألأ فيها النجم، ومع مرور الأيام نسي النّاس حادثة النجم المتلألِئ، ولم يعودوا يتحدثوا بها.

في هذه الأثناء وفد على أورشليم رجلان من علماء المجوس، يشبهان في شكلهما فقراء اليهود، ظل هذان الرجلان المجوسيان يسألان الناس عن اسم عذراء ولدت غلاماً ليلة ظهور النجم من عامين، تعجب الناس لِسؤَالهما، لأنهم يعلمون أن العذارء لا تَلِدُ، لذلك كانوا يضحكون عليهما، ويقولون: إنَّهُمَا مجنونانِ!

جاء هذان المجوسيان إلى أورشليم، وقد تحملا عناء السفر ومشقته ليحققا النبوءة التي شغلتهما، وانتظراها من قديم الزمان، فوجدا القوم يسخرون بهما، ولا يهتمون معهما بمعرفة هذا الأمر الخطير، وهو ميلاد المسيح المنتظر، وأخيراً استقر عزمهما على أن يذهبا إلى الملك هيرودس، لِيطَّلِعا على سجلات المواليد في تلك السَّنة، ذهب الرجلان إلى الملك وقالا له: لقد حضرنا إليك لأمرٍ عظيم يخص بني إسرائيل.

فقال هيرودس: ماذا تريدان؟

قال أحدهما: لقد تنبأ المنجمون برسول يولَدُ من فتاة عذراء، ويصادف ميلاده ظهور نجم متألق تسقط أشعته من السماء على مهده، ويشع نور من الأفق يتقاطع مع شعاع هذا النجم فوق المدينة التي يولد فيها.

وقد تابعنا رصد هذه الظاهرة ومعنا المنجمون والفلكيون ورأيناها منذ عامين، فضربنا في الأرض نسأل عن المدينة التي سقطت فيها أشعة هذا النجم، وأخيراً عرفناها.

قال الملك: أي مدينة هي؟

قال الرجل: إنها قرية بيت لحم.

قال الملك: وماذا تريدان مِنِّي؟ قال الرجل: نريدُ أن تساعدنا على معرفة هذا الطفل من سجلات المواليد.

قال الملك: وكيف تعرفانه من بين مواليد هذا العام؟

قال الرجل: سنزور ونرى منزِلَ كل طفل وُلِدَ في تلك الليلة، ولنا في وجه المسيح المنتظر علامات يتميز بها عن النّاس جميعاً.

وافق الملك، وقال لهما: لكما ما تريدان، سآمر بإعداد السجلات وسيصحبكما نفر من الشرطة يُسَهِّلان لكما زيارة المنازل. فإن وجدتماه فاحملاه إلى هنا.

نفَّذ المجوسيان ما جاءا من أجله، فقد بحثا عن الاسم، وذهبا إلى منازل مواليد هذا العام بيتاً بيتاً، حتى استقرَّا أخيراً عند مريم العذراء، فأعلماها أن خطراً يتهدد ابنك، ويجب عليك السفر إلى مكان آخر.

فقالت مريم: ولما أسافر؟

قالا: لأن الملك هيرودس خطر على ابنك، فيجب أن تبحثي عن مكان آمن.

قالت: ولماذا ابني بالذات؟

قالا لها: إنا نبشرك بأن ابنك سيكون له منزلة سامية وعظيمة في الأرض والسماء.

ومد أحدهما يده وحمل الطفل ثم أَقبل الثاني وأخذ خصلة من شعر عيسى عليه السلام.

ثم ترك الرجلان الطفل ومضيا إلى سبيلهما من حيث آتيا دون أن يشعر بهما الملك هيرودس أو يعودا لمقابلته.

كان الملك حقاً يريد أن يقتل هذا الطفل لأنه اعتقد أنه سيزاحمه في ملك بني إسرائيل، ولذلك فقد أمر المجوسيين بإحضاره لا ليراه ويرى علامات النبوة على وجهه بل ليتخلص منه إلى الأبد.

علم الملك أن المجوسيان هربا وسافرا دون أن يلتقيا به أو يأتياه بالطفل، فاغتاظ غيظاً شديداً، وأمر رجال الشرطة الذين كانوا في صحبة المجوسيين أن يأتوه بجميع الأطفال الذين زاروهم في آخر يوم، ويقتلوهم، وقد أمر الملك أمره هذا لأنه بدهائه اكتشف أن المجوسيين قد عرفا ما يضمره للمسيح من عذر، فلم يحضراه إليه، فقال في نفسه لا بد وأن يكون المسيح قد صادفهم في زيارتهم للناس في اليوم الأخير، لذلك أمر بإحضار هؤلاء الأطفال وقتلهم[1].

(١) قصص الأنبياء لابن كثير قصة عيسى بن مريم بتصرف يسير.

السفر إلى مصر والعودة

انصرف المجوسيان وعادا من حيث أتيا، وفي هذا الوقت رأى يوسف النجار في منامه الروح الأمين يقول له خذ الصبيَّ وأمه واهرب إلى مصر، فإن الملك هيرودس مُزْمِعٌ أن يطلب الصبي ليقتله، فقام يوسف النجار من نومه وأخذ الصبي وأُمَّهُ ليلاً وانصرف مسافراً آخذاً طريق الجنوب إلى مصر، ولما وصلوا مصر أقام بها حتى علم بوفاة هيرودس فعادوا إلى بلادهم، ولما علم يوسف النجار أن أَرْكيلادس خلف أباه هيرودس في الملك خاف أن يذهب إلى أورشليم بالصَّبيِّ فألهمه الله أن يتابعوا سيرهم إلى الناصرة، ولم تطمئن قلوبهم حتى رأوا مباني تلك القرية تطل عليهم من فَوْقِ ذلك الجبل العالي المستدير، فاتجهوا إلَيْها، وأسرَعُوا نحوها.

نشأ عيسى آمناً مطمئناً مع أمه، وأصبح صبياً فتياً، ولعب مع الأطفال وتعلم النجارة في حانوت يوسف النجار، وتعلم القراءة والكتابة مع أترابه في مدرسة القرية، حيث كانوا يجلسون فيها على شكل نصف دائرة عند قدمي الحاخام، يرتلون المزامير، مزامير داودعليه السلام. وكان عيسى يعود من مدرسته، فتتلقاه مريم العذراء الأُم الطاهرة الطيبة المصطفاة على نساء العالمين، وتقدِّمُ بين يديه الكتب المقدسة، وتغذي روحه بعظات الدِّين، ثم تخرج معه إلى الخلاء

ليرى من طبيعة الكون آيات الله البينات، تتجلى له روعتها في جبل راسخ، وطير صادح، ومياه عذبة، وأشجار مخضرة، وتعرُّفه أن الله وراء جميع هذه المخلوقات فهو الخالق العظيم، الذي خلقها واعتنى بها ودبَّر لها أرزاقها، وبذلك استطاعت مريم أن تغرس بذور الحُبّ والمحبة في نفس ابنها عيسى من نعومة أظافره ـ غرست في نفسه الحب والمحبة لكل البشر والمخلوقات العظيمة.

وكان عيسى طفلاً جميلاً، بين إخوانه هادئاً طروباً، يحبهم جميعاً ويحبونه، وكان عندما يعود إلى داره مطيعاً وديعاً، وإذا ذهب إلى حانوت يوسف النجار ذَهَبَ نشيطاً نافعاً، يقوم بعمله في النجارة خير قيام ويؤدي ما يطلب منه بجد ومهارة، حتى أصبح نجاراً ذكياً ماهراً في صنعته بلغ عيسى الثانية عشرة من عمره، وكانت أمه تأخذه إلى أورشليم في عيد الفصح، لتجري عليه مراسيم التكليف الديني، وينتسب إلى عضوية الكنيسة، وكان عيسى عليه السلام يسعد دائماً بصحبة أمه مريم العذراء وهو سائر في طريقه إلى بيت المقدس بين رهط حجاج الجليل.

وكثر تردد عيسى على القدس، وذلك ما أحبته فيه مريم ابنة عمران وأم عيسى. ورغم ذلك اشفقت عليه لما كان يبدو عليه من الوجوم والتفكير العميق اللذين لا تعرف لهما سبباً.

في هذا الوقت اقبل عيسى على مجالس العلماء والأحبار في بيت المقدس، فكان كثيراً ما يسمع لهم، ويناقشهم في مسائل كثيرة، حتى اشتد شغفه بالعلماء ومجالسهم، فاختفى من عين أمه مريم ثلاثة أيام، كان يناقش العلماء والأحبار ويناقشونه، وهم يشجعونه لحداثة سِنّه ورجاحة عقله.

نما عيسى نمواً متناسقاً طبيعياً بين أهله وذويه بعد أن عاد مع أمه مريم العذراء المصطفاة المنذورة إلى الناصرة.

وفي هذه الأثناء مات يوسف النجار، فحزن من أجل فراقه عيسى عليه السلام وكذلك أمه مريم العذراء.

عيسى نجاراً ومعلماً

ولما مات يوسف النجار، كان على عيسى أن يتحمل مسؤولياته الدنيوية وكان عيسى عليه السلام قد درج على مرحلة الشباب فتحمل عبء الحانوت وحده وصار يكبر ويعمل ليعول أمه مريم العذراء المصطفاة.

ففي كل يوم يخرج عيسى مبكراً إلى حانوته، ينجر الخشب، ويصلح اعوجاجه ليصنع منه ما يشاء، فكان يصنع اللُّعب للأطفال، وكان الأطفال يحبونه ويترددون عليه، كما كان يصنع أدوات الزراعة لقومه، وكان القوم يثقون بأمانته، وجودة صناعته، ودقة عمله.

كل هذا جعله محبوباً من الناس جميعاً كباراً وصغاراً، وكان حانوته مكاناً بل منتدى يؤمُّه الجميع وقت الفراغ والراحة.

كان أطفال القرية يقبلون عليه ليستمعوا إلى قصصه الطريفة، وكان عيسى يحاول بقصصه أن يغرسَ في نفوسهم بذور المحبة. فيعلمهم أمور الدين، فعرفوا منه الكثير عن الله سبحانه جل شأنه وأصبح الحانوت منارة علم لهؤلاء، فيه من العلم والمعرفة ما يفوق العلم والمعرفة الذي ينالوه من مدرسة القرية التي لم يجدوا لها في نفوسهم حبّاً كحب هذا المعلم الواقف في حانوت النجارة عيسى عليه السلام.

بين يحيى وعيسى عليهما السلام

تركنا إيشاع امرأة زكريا حاملاً بيحيى الذي بُشِّرَ به زكريا بن برخيا عليه السلام، وقد وضعت إيشاع طفلها المبارك يحيى، واستقبل هذا الصبي نور الدنيا قبل ميلاد المسيح عليه السلام بأشهر.

ونشأ يحيى في بيت المقدس في بيت زكريا بن برخيا الذي كفل مريم في طفولتها.

نشأ يحيى بن زكريا منذ طفولته ميالاً إلى العزلة، مُحبّاً للخلوة، فلما تخطى مرحلة الطفولة هام على وجهه في البرية كالغزال النافر، وصار زاهداً ناسكاً: يأكل القليل، ويلبس الخشن، ويقضي وقته يتأمل في الطبيعة، ويفكر فيها طويلاً، وقد اختلف يحيى مع رجال الدين، الذين يستغلون الناس، ويأخذون أموالهم مرّةً باسم النذور، وأخرى باسم الهبات، ومن هذا العمل يجمعون ثروات طائلة من أقوات الفقراء والمساكين.

وقد بعث الله جل شأنه بنبيه يحيى عليه السلام ليطهر الناس من أطماع الدنيا، ويبشر برسالة المسيح عليه السلام الذي يأتي من بعده ليمهد له الطريق.

أعلن يحيى الحرب على البدع والخرافات التي سنها رجال

الدين، وراح يهيىء الناس للدعوة الكبرى، فكان صوته صارخاً في البرية، يعلن مبادئه في قوة وصرامة. وقد تفتحت لدعوته آذان الناس، وآمن به خلق كثيرٌ، وشاعت برسالته، في بني إسرائيل وانتشرت فأقبلوا عليه، يعرضون الإيمان ويظهرون التوبة، فإذا أُلهِمَ صِدْقَهُم أخذهم إلى نهر الأردن نهر الشريعة، فَغَسَل رؤوسهم بالماء، وكان عمله هذا يسمى التعميد، فأطلق النّاس عليه لقب «المعمدان» فَسُمِّي «يحيى المعمدان».

وقد ظنَّه بعض الناس المسيح المنتظر، وقد علموا أنّه وُلِدَ في العام الذي سطع فيه النجم، لذلك أقبلوا عليه ليُعَمِّدهُمْ ويقبل توبتهم. وكان بعض النّاس يَسألونَهُ: أَلَسْتَ المسيحَ المنتظر.

فكان يقول لهم: ما أنا إلا صوت صارخٌ في البرية، والمسيحُ إقدَامُهُ على الأبواب، وقد بعثني الله لِأُعِدَّكُمْ لرسالته، وأُعمِّدَكُمْ بالماء للتَّوْبَةِ، أمّا هو فسوف يُعَمِّدُكم بالروح القدس والنَّار.

وفيما هو في حديثه هذا مع الناس كل يوم، وفي يوم من الأيام كان عيسى بن مريم عليه السلام سائراً بجوار نهر الأردن، فرأى جموع النّاس تتكاثر على يحيى المعمدان (يحيى بن زكريا بن برخيا عليه السلام)، ليعمدهم بماء النهر، فانتظر حتى فرغ من عمله، وجاءَه خائضاً في الماء، فالتقت أنظارُهُما، وتعارفت روحَاهُما، فتقدم يحيى إلى المسيح في خشوع واحترام، وغطَّسَ رأس عيسى في ماء النهر، ثم قال له: الآن قد انتهت رسَالَتي، وأكملت واجبي، وأنا أوَّلُ من يؤمن بك. في هذا الوقت تجلَّى نورٌ من السَّماءِ، وهبطت حمامة بيضاء فوق رأس عيسى عليه السلام، فانحنى يحيى إجْلَالاً، وَمَضَى لِشَأْنِهِ، دون أنْ يتحرك لِسَانُهُ بكلمة واحِدَةٍ.

تلك الحمامة البيضاء كانت الروح القدسِيّ الأمينَ، وكانت هذه

اللحظة حَدّاً فاصلاً بين حياتين، حياة عيسى بن مريم المُعلم العظيم والنجار الماهر، وبين حياة عيسى المسيح عليه السلام كان عليه السلام صاحب رسالة عظيمة بشَّر برسول يأمن من بعده اسمه أحمد، وهو النبي ﷺ.

هذا هو عيسى ابن مريم ـ مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

وبدأ عيسى عليه السلام يدعو إلى عبادة ربه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦].

مريم آية

تفوقت مريم على نساء العالمين بما حباها الله من نعمة وفضلها، فقد اصطفاها ربها وجعلها وابنها آية، وطهرها. واختارها وفضلها على نساء العالمين وكان اليهود رغم كل هذا يرمونها بأقبح ما ترمى به فتاة طاهرة. وكان المسيحيون أهل دين ابنها يرونها أُماً للإله وللرب!

أما المسلمون والإسلام فإنهم يعدونها آية، صديقة طاهرة، وأُماً للمسيح عليه السلام.

وقد أكد القرآن الكريم قول اليهود عن مريم العذراء الطاهرة المنذورة المصطفاة، كانوا يقولون عنها أنها جاءت بالمسيح من طريق غير شرعي، جاءت به من البغي والعياذ بالله من قولهم وجاء القرآن يفند قولهم فقال عز وجل:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

وحاشى لله أن تكون مريم كما قالوا، ولو أنهم يعقلون لتأملوا في معجزة براءة مريم من شكهم وريبتهم حينما تكلم عيسى في المهد، وتمادوا غير عائبين بهذه المعجزة التي برأت مريم العذراء عليها السلام.

لقد تحركت عقولهم عندما أشارت إليه وهو في المهد فقالوا:

﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فلم تجب وأجابت المعجزة أجاب طفل في مهده لم يبلغ من العمر أياماً، نطق بفصاحة وإعجاز: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

ألا تكفيهم هذه المعجزة ـ ولكنهم تجرأوا في سفالتهم وانحطاطهم فروى أنه لما أشارت إليه أن كلموه، قالوا إستخفافها بنا أشد من زناها.

وحاشاها أن تكون كما قالوا وافتروا، فهي الطاهرة المصطفاة على نساء العالمين، كان تكريمها عظيماً في القرآن الكريم.

ـ أما المسيحيون، فإنهم يرونها شيئاً سامياً كريماً عفيفاً عظيماً فيقولون فيها: نعظمك يا أُم النور الحقيقي، ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله!

ومن أسماء اللاهوت الأرثوذكس[١] اطلقوا على مريم أسماء عديدة وهي والدة الإله، دائمة البتولية، وأم النور، وقديسة في كل شيء وأم جميع الأحياء سيدتنا، وشفاعتها، وتكريمها.

وقد إعْتُبِرَ لفظ والدة الإله عند الأرثوذكس مدخل لإيمان المسيحي الأرثوذكس ومن ذلك قول لقديس[٢] منهم: أي ابن الله اتخذ لنفسه جسداً من العذراء، لذلك حق للعذراء أن تدعى والدة الإله.

---

(١) انظر العذراء القديسة مريم ـ من كتب المسيحية عن مريم.

(٢) القديس غريغوريوس.

ويقول قديس[1] آخر: عذراء وهي حامل...

عذراء وهي والدة.. وعذراء وهي مائتة.

ـ أما لفظ البتولية فهو لفظ عبري معناه: «عذراء منفصلة» لم تعرف رجلاً قط.

واعتبر الأرثوذكس أن البتولية قامة روحية قبل كل شيء وحالة داخلية تتعلق بأعماق النفس ـ لأن الجسد وحده لا يفيد شيئاً.

وموضوع البتولية الدائمة ليس هو منطق حوار جسدي محض يتخذ أصوله من ولادة مريم وحفظ جسدها وحسب، إنما يتخذ كيانه أيضاً من تأصل حالة عفّة سرية إرادية وترفّع عن أي شهوة جسدية، أو رغبة حسية أنانية، مع هدوء في القلب والعقل وتكامل في العواطف. وفي كلمة واحدة هو التمتع بحاله «نقاوة قلبية» بفعل النعمة المالئة للكيان الداخلي: «السلام لك أيتها الممتلئة نعمة» وهي الحالة الفائقة التي تؤهل الإنسان لرؤية الله: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله».

فالبتولية عند العذراء مريم كانت تملأ كيانها العقلي والقلبي والنفسي عن مشيئة حرة وأيضاً مع الجسد.

والعذراء كرست كيانها البتولي لله دفعة واحدة، وقدمت نفسها كلاً لله، «هو ذا أنا أَمَةُ الرب» في رضاء وتسليم نهائي يفيد حالة بتولية ستدوم إلى ما لا نهاية، لأن دعوة الله للعذراء واختيارها لتجعل من الروح القدس وتلد ابناً للعلى، وهي عذراء كما هي، هو بواقع الأمر حالة التصاق بالله «روح واحد» أو هي زيجة بتولية على مستوى إلهي

(١) القديس اغسطينوس.

لا يمكن الرجوع فيها، أو الانفصال: «لأن القدير، صنع بي عظائم» وحالة المولود منها: «يكون عظيماً وابن العلى يدعى»... «والعذراء تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً».

- ولقبت مريم العذراء بلقب «أم النور» وهو لقب كنسي.

ولنتابع نصوصهم وأقوالهم في هذا الأمر يقولون:

حينما لقب مجمع أفسس العذراء القديسة مريم «بأُم النور الحقيقي» فتح المجال للتأمل في عجيبة هذه العذراء بصفتها حالة لشمس البر الذي أشرق جسدياً من العذراء.

وهنا تتجه التسبيحة إلى اعتبار أن العذراء «حاملة شمس البر أو أم النور الحقيقي».

«أنت مستحقة أكثر من جميع القديسين أن تطلبي عنا، أيتها الممتلئة نعمة، لأنك مرتفعة جداً أكثر من رؤساء الآباء ومكرمة أفضل من الأنبياء!!».

«الله هو نور وهو ساكن في النور وتسبحه ملائكة النور! والنور أشرق يا مريم».

«صارت بطنك له عرشاً، وجسمك احتواه باتساعه الذي يفوق السماء».

- وسميت مريم قديسة على كل شيء لأنه لو نظرنا إلى جميع المبادىء الواردة يتبين بوضوح أن مريم العذراء قطعاً ليست موضوع عبادة في الكنيسة وإنما هي تكريم حقيقي واعتراف بالجميل الذي أدته للبشرية عوض خطيئة حواء.

فالكنيسة الأرثوذكسية لا تعتقد أن مريم ولدت بطبيعة مقدسة لتقبل الحلول الإلهي ـ وتصبح بالتالي مستحقة للعبادة باستحقاق طبيعتها الفريدة هذا خطأ لأنه يخرجها خارج دائرة البشرية[1].

لكن الكنيسة تؤمن أن الروح القدس لما حلّ عليها قدسها إعداداً للتجسد وذلك بأن الروح القدس ملأ كل موضع فيها ـ وذلك في النص التالي:

«والروح القدس ملأ كل موضع منك، نفسك وجسدك يا مريم يا أم الله!»

وبذلك صارت قديسة في كل شيء. ثم إن قداستها ابتدأت بعد الاختيار لا قبله:

وذلك في النص التالي: الأب اختارك، والروح القدس حل عليك، والابن تنازل وتجسد منك.

غير أنها تقدست في كل شيء بعمل الروح القدس، وظلت كذلك: أما جسد المسيح الذي أخذ منها فهو لم يتقدس بواسطة العذراء وإنما بعمل الروح القدس وباتحاد لاهوته، لذلك فالكنيسة تقطع بعدم عبادة مريم قطعاً فاصلاً، وذلك واضح في قول الآباء ومنهم القديس أميروسيوس الذي يقول: «وبدون شك يعبد الروح القدس، لكن لا ينحرف أحد بهذه العبادة نحو العذراء مريم، لأن مريم كانت هيكلاً للإله، وليست إله الهيكل، لذلك فإنه (الرب.. يسوع) وحده الذي يعبد وهو في هيكله».

وتقدم الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء مريم في تقليدها الأصيل، تكريم وتعظيم وتطويب وتبريك ملتزمة نفس الجمل التي نطق بها

---

(١) الأستاذ محمود شلبي حياة مريم دار الجيل.

الملاك جبرئيل، ونسيتها اليصابات[1]، وكما نطقت العذراء نفسها وبفمها: «تعظم نفسي بالرب وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى اتضاع أمته، فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني، لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس..».

وتتوالى النصوص المسيحية، تتحدث عن مريم، وتتحدث عن شخصيتها، فتؤلهها تارة وتجعلها فوق الأنبياء جميعاً تارة أخرى، ولكن سنعرض وجهة نظر الإسلام في السيدة الجليلة مريم العذراء البتول المنذورة المصطفاة الطاهرة.

- وجاء رأي الإسلام رأياً وسطاً في شخصية مريم ومكانتها. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ما يرد على كل الآراء المتطرفة في شخصية مريم، فإذا قلت من هو المسيح ومن هي مريم تجد الآيات قد أجابتك بوضوح شديد في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة: ٧٥].

أي: ما المسيح إلا رسول كالرسل الخالية الذين تقدموه خَصَّهُ الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خصَّ بعض الرسل، فإن إحياء الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى، وجعلت حية تسعى وهو أعجب، وإن خُلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أعزب وكل ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شؤونه وأفعاله[2].

---

(١) اليصابات هي إيشاع زوجة زكريا بن برخيا وأم يحيى.

(٢) انظر صفوة التفاسير ج١ ص٣٥٨ تفسير الآية ٧٥ سورة المائدة.

أمه صديقة

أمه صديقة هذا هو لقب من ألقاب مريم العذراء، والصديقة المبالغة في الصدق الشديدة الصدق. وهي كسائر النساء اللّواتي يلازمن الصدق.

والمراد بالصدق هنا هو صدق حالها مع الله تعالى سبحانه عز وجل، وقيل صدقها في براءتها مما رمتها به اليهود.

والمراد بالتصديق في الآية: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ هو تصديقها بما حكى الله تعالى عنها بقوله سبحانه الذي ذكرناه ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وهذه دلالة على أنهما كانا كسائر البشر من الاحتياج إلى ما يقوم به البدن من الغذاء، فالمراد من أكل الطعام حقيقته وروى ذلك عن ابن عباس وقيل هو كناية عن قضاء الحاجة لأن من أكل الطعام احتاج إلى الإخراج والنفض.

نبوة مريم

تداول الحديث عن نبوة مريم العذراء ولهذا التداول أسباب أهمها:

أولاً: الاصطفاء: ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾.

ثانياً: أن من معجزاتها رزقها بغير حساب كما أعطى سليمان: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ثالثاً: وتكليم الملائكة لها وإرسال جبرئيل إليها وولادتها من غير مسّ. وبراءتها بلسان صبي (نبي) وضمها مع نبي في آية واحدة. فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾، وبهذا ذهب بعضهم إلى أنها نبية ـ ولما طرح السؤال: قوله في مريمعليها السلام ولقمان، هل هما نبيان أم لا؟ قال النووي: إنَّ الجماهير تؤكد على أنهما ليسا نبيين وقد شذَّ من قال في نبوتهما ولا إلتفاف إليه ولا تعريج عليه.

ولمريم فضل من حيث ذكرها في القرآن مع الأنبياءعليهم السلام، وقد اختلف بنبوتها وذكرها في القرآن مع الأنبياءعليهم السلام، فمن قال بنبوتها فقد احتج بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وغيرها من الآيات الدالة على نبوتها ومن قال: إنها ليست نبية احتج بقوله «جعلنا» أي شأنها آية.

وقيل معناه: جعلنا كل واحد آية. ولا ينبغي للمؤمن أن ينفي نبوتها ولا يجزم بنبوتها فعلمها عند الله واختلف العلماء في كيفية الإيمان بالأنبياء المتقدمين الذين نسخت شرائعهم وحقيقة الخلاف أن شَرّعَه لما صار منسوخاً فهل تصير نبوته منسوخة؟ فمن قال بذلك، قال: نؤمن بأنهم كانوا أنبياء ولا نؤمن بأنهم أنبياء ورسل في الحال. ومنهم من قال: أن نسخ الشريعة لا تقتضي نسخ النبوة، قالوا نؤمن بأنهم أنبياء ورسل في الحال، وقد تنبه لهذا بعض الفضلاء. وقد ذكر في الفقه الأكبر، قوله ﷺ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاثة مريم وآسية وخديجة»**[1].

(١) انظر الروضة الفيحاء في تواريخ النساء ص١١٦، ١١٧.

مع المسيح ومعجزاته

مضى عيسى المسيح عليه السلام هائماً على وجهه في البرية، فقطع الوديان وصعد الجبال، ومكث هناك أربعين يوماً في صوم وصلاة، لا يأكل ولا ينام، فابتلاه الله بالجوع والعطش، وزيّن له إبليس اللعينُ عزّة الملك والسُّلْطَانِ، فلم يستطع أن ينال من إيمانه شيئاً.

وخرج المسيح من هذا الاختبار وهذا الابتلاء القاسي الصعب والذي شعر بمرارته، خرج منه كما يخرج النور من النار، والفجر من دياجير الظلام، والضوء من غسق الليل.

أما نبيّ الله يحيى بن زكريا، أو يحيى المعمدان كما يطلقون عليه فقد ذهب إلى قريةِ بيتِ عبرةَ، ينتظر قدوم المسيح عليه السلام، ويبشر الناس بحلوله، وكأنه كان على علم حينما انتظره أربعين يوماً متيقناً أن مجيئه حقيقة أكيدة.

وذات يوم كان يحيى عليه السلام خارج القرية، يمشي بين السهول ووسط أشجار الزيتون، فرأى شبحاً ينحدر مسرعاً من أعلى الجبل، فأشار إليهِ، وقال لمن حوله: هو ذا حَمَلُ الله الذي حدثتكم عنه، وحدّثتكم به، هذا هو المسيح المنتظر. ألا ترون؟!

قال يحيى ذلك ثم انصرف دون أن ينتظر مقابلة المسيح عليه السلام

وكانت رحلة يحيى عليه السلام للصيد، وكان في صحبته صيادان من كفرناحوم هما يوحنا بن زَبدى وزميله اندراوس، وكانا يظنان أنه المسيح المنتظر، فلما علما أمر الهابط من الجبل، ذهبا للقائِهِ، وتبعا خطواته، حتى إذا رأياه يجلس تحت شجرة الزيتون، أقبلا عليه فتعارفوا جميعاً، ثم تحدثوا بعد ذلك في خطايا البشر والناس. ثم انضم إليهم في اليوم التالي أخٌ لاندراوس اسمه بطرس، وصار هؤلاء تلاميذ المسيح عليه السلام، يسمعونه في كل أوان، ويلازمونه في كل مكان في صباحه ومسائه، وفي رحلاته وغدواته.

معجزة من معجزاته

دُعيَ المسيح عليه السلام إلى حفلة عُرس في بلدة قانا وكانت قانا قريبة من الجليل، فحضرت أُمه مريم العذراء الحفل وكانت مشرفةً عليه لقرابة بينها وبين العروسين، فذهب عيسى المسيح عليه السلام ليساعدها، ويقف بجانبها، والتقى هناك بصديقين انضما إلى تلاميذه هما فيليبس ونثنائيل.

وكان من عادة اليهود في الحفلات أَنْ يُقَدموا الخمر للضيوف ـ وخاصة حفلات العرس، ويظهر أن المدعوين في هذا الحفل، كانوا أكثر مما ينتظر، ففرغت أواني الخمر الموجودة[1] وكان ذلك فَأْلاً سيئاً على العروس، فأسرعت مريم إلى ابنها تستشيره فيما يجب عمله، وكان سقاةِ الخمر قد خرجوا من القاعة وبقي فيها سقاة الماء لمن يطلب الماء.

اسرع المسيح وأمر سقاة الماء أن يمروا على بقية المدعوين الذين لم يشربوا خمراً، وفطن المدعوون إلى ذلك فتبادلوا ألفاظ السخرية وهم يهمسون، وكادت مريم تذوب من شدّة الخجل، فأسرعت توقف أمر ابنها، وقالت للسقاة: كفوا عن توزيع الماء، حتى

---

(١) لم تكن الخمر محرمة عند اليهود. وقد حرّمها الإسلام.

نأتي بالخمر، فتقدم بعض الوجهاء يعرضون التبرع بثمنها، ولكن المسيح عيسىﷺ أصرّ على تنفيذ الأمر، وتقدّم بنفسه فملأ القدح الأول، ثم قدمه إلى رئيس الحفل، فتناوله مجاملاً، وشرب منه جرعة، ثم ملكته الدهشةُ، وإذا هو يقول بصوت عال: لقد تحول الماءُ خمراً معتقة!!

لم يصدق المدعوون، واقبلوا مسرعين على الأقداح المملوءة يشربون ويعجبون، وفرغت الأواني، فَمُلِئت ثانياً بالماء أمام النّاس، ووزعت عليهم خمراً معتقة لذيذةً.

تحول حديث النّاس عن الفرح إلى المعجزة التي تمت على يد عيسى ذلك النجار القادم من قرية الناصرة في أعلى جبال الجليل.

لفت المسيح عيسى نظر هؤلاء الناس، وتحول الأمر إلى إعجاب بما جاء به وثقة فيما يقوله، وإيمان بما يفعله، لقد رأوا معجزة أذهلتهم فكان لا بد لهم من متابعة هذا المعلم العظيم.

كان هؤلاء من قرية كفرناحوم، فدعوا المسيح أن ينزل عليهم ضيفاً، وألحوا في دعوتهم.

استجاب المسيح عيسى لدعوتهم، وذهب معهم إلى كفرناحوم، وذاعت شهرتهﷺ، وجَعَلﷺ يهاجم البدع والخرافات التي كان يروجها رجال الدين اليهود طمعاً في الدنيا، فأقبل عليه الناس من بلاد الجليل، وكانوا يستمعون إلى دروسه، ويعجبون لقوة إيمانه وعظيم جرأته، وزاد إعجاب الناس به، وتقديرهم له، فصار له في تلك القرية وما حولها من قرى الجليل إشياع وأتباع، نشروا دعوته، وأذاعوا أمره.

وكان المسيحﷺ في قرية هي قرية «قانا» التي نزل فيها ضيفاً

على تلميذه نثنائيل، ومكث فيها شهرين يعظ الناس ويعلمهم، ويمسح دموع الأشقياء فيسعدهم.

وقد شهدت هذه القرية خلال هذين الشهرين معجزاته في شفاء المرضى، كان أُولاها أن دعي لزيارة مريض كان وحيد والديه، فلما وقف بجانبه وجده في النزع الأخير، فمر بيده على رأسه، وأمره بالقيام، فوقف المريض سليماً مُعافى، وكان والده أحد قواد الملك هيرودس، فما لبث أن انحنى على يد المسيح يقبلها، ويغسلها بدموع الفرح والاعتراف بالجميل، وصار هذا القائد وعائلته بعد ذلك من أخلص أتباع المسيحﷺ.

وسمع الناس بما يفعله عيسى بن مريمﷺ فأقبل المرضى يطلبون الشفاء، وعادوا بعد ذلك أصحاء، قد زالت أوجاعهم.

ذهب عيسى بعد ذلك إلى كفرناحوم، ونزل ضيفاً على تلميذه بطرس فشهدت هذه القرية ما أثار الدهشة على وجوه القوم وإعجابهم بمعجزاته في شفاء المرضى الذين أقبلوا عليه من جميع بلاد الجليل ليفوزوا بلمسة مباركة منهﷺ، تعود إليهم بعدها بهجة الحياة.

وقد جاء إلى المسيح عيسى بن مريم الأعمى والمقعد والأكمه والأبرص، فإذا الأعمى ينقلب مبصراً يرى ما حوله ويتمتع بنعمة البصر التي حرم منها والمقعد يرجع إلى أهله ماشياً على قدميه، يركض من شدة الفرح والأكمه والأبرص لا يشعران بالقلق مما أصابهما وجعل النَّاس يعكفون عن رؤياهم ومخالطتهم خوفاً من عدوى مرضهم.

والجميع ينالون من يده المباركة نعمة الصحة والشفاء.

وكان هذا العملُ السِّلمي كفيلاً بأن يؤلف حوله القلوب، وبَدَأَ

الناس هناك يؤمنون برسالته، رسالة السلام التي ينادي بها في دروسه واجتماعاته، أمّا أمه مريم عليها السلام، فقد كانت ترقب ذلك، وتباركها في صلواتها وترانيمها، فقد انصرفت لعبادتها حين انصرف هو لدعوته الناس لعبادة الله والسلام والمحبة.

ولما علم رجال الدين في أورشليم ذلك، أرسلوا وفداً منهم ليشهدوا أعماله، ويجادلوه في مبادئه الدينية التي يخالفهم فيها، فكانوا يحضرون جلساته، ويشهدون أعماله، فيعجبون ويندهشون، فمنهم من آمن به، وصار تلميذاً مخلصاً لَهُ، ومنهم من أصرّ على عناده، وقال:

ـ ما هذا إلا سحر.

وقد تحدث رب العزة في كتابه الكريم عما أُوتي عيسى عليه السلام من معجزات كشفاء المرضى وإحياء الموتى، وكونه عليه السلام ينبئهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم مما لا يعلمه إلّا أصحاب هذه الأسرار فقال تعالى جل شأنه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

انقلب المعاندون من رجال الدين إلى أورشليم، وقصوا على إخوانهم ما رأوْهُ وما سمعوه، وأخبروهم أنه قادم عليهم في موسم الحج، وخوفوهم من أتباعه، الذين يؤمنون به.

أما رجال الدين المؤمنون بالمسيح عليه السلام، فقد أشاروا عليه بعدم الخروج للحج هذا العام، ولكن المسيح عليه السلام على الرغم من ذلك

خرج في موسم الحج، وذهب أيضاً كثيرون من حجاج الجليل الذين شهدوا معجزاته وآمنوا به.

وفي أورشليم «القدس» كثر الجدل والنقاش بين سكان الشمال والجنوب بشأن ذلك الفتى القادم من الناصرة الذي جاء مصدقاً بالمعجزات وقد عدّد الله سبحانه عز وجل هذه المعجزات التي أنعم بها على عيسى وأُمه مريم في خطاب مباشر له، ردّاً على هؤلاء الذين أثاروا الكثير من الجدل واللغط من أحبار اليهود والنصارى.

نعم الله على عيسى وأمه مريم

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠ ـ ١١١].

ذكّر الله تعالى عيسى بنعمته عليه وعلى والدته، وإن كان لهما ذاكراً لأمرين:

الأول: ليبين للناس ما خصهما الله به من الكرامة، وما ميزهما به من علو المنزلة.

الثاني: ليؤكد بما أنعم عليه حجته ويرد به جاحده[1].

ثم أخذ سبحانه وتعالى في تعديد نعمه على عيسى بن مريم وأُمه

(١) تفسير القرطبي ج٦ ص٢٦٢.

العذراء المصطفاة المنذورة الطاهرة مريم ابنة عمران بن ماثان التي حدثتها الملائكة باصطفائها على نساء العالمين في زمانها فقوله: ﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾ أي في خلقي إياك من أُم بلا ذكر وجعلي إياك آية، ودلالة قاطعة على قدرتي على الأشياء.

- ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون إليها من الفاحشة.

- ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ وهو جبرئيل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي.

ويكلم الناس في المهد

هذه النعمة تعد معجزة من المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى عليه السلام وبلسانه، وتعد معجزة الكلام في المهد بالنسبة إلى عيسى آية عظيمة لأنه عليه السلام الذي بدأ دعوته وهو في المهد لم يبلغ شهوره الأولى كما أنه يدعو الناس وهو شيخ عاقل أصبح كهلاً فقال سبحانه عز وجل: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

فكلام الناس في المهد أمر خارق عن العادة في نمو الإنسان وعلاقة النمو بالنطق والعقل والعلم.

وفي حديث كلام عيسى عليه السلام في المهد خاض العلماء واستطردوا فالمفسرون قالوا: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

أي: «تدعو الناس إلى الله في صغرك وكبرك، فتكلمهم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة، الذي هو كمال العقل وبلوغ الرشد، لأن كلامك في الحالتين دعوة إلى الله، ودعوة إلى إفراده بالعبادة»[1].

والمقصود التسوية بين الكلام في حال الطفولة وحال الكهولة،

(١) انظر تفسير ابن كثيز ج٢ ص١١٥.

وإلا فالكلام في الثاني ليس مما يختص به عيسى ﷺ وليس فيه غرابة.

والمهد: مقر الصبي في رضاعه.

وكان كلام عيسى في المهد ساعة واحدة بما قص الله تعالى لنا، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام[1].

وقالوا: إن مريم لما أتت قومها بعيسى ﷺ أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرجموها، فلما تكلم عيسى تركوها.

ـ ثم لم يتكلم بشيء بعدها، حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان.

وقيل: كان يتكلم دائماً، وكان كلامه فيه تأسيساً لنبوته، وإرهاصاً لها.

ويجوز أيضاً أن يكون ذلك كرامة لمريم ﷺ، دالة على طهارتها وبراءة ساحتها، مما نسبه أهل الإفك إليها.

والقول: بأنه كان معجزة لمريم بعيد.. وإن قلنا بنبوتها.

قالوا: وزعمت النصارى أنه ﷺ لم يتكلم (في المهد) ولم ينطق ببراءة أُمه صغيراً، بل أقام ثلاثين سنة واليهود تقذف أُمه بيوسف النجار.

ـ واعترضوا بأن كلامه في المهد من أعجب الأُمور.

«فلو كان لنقل، ولو نقل لكان النصارى أولى النّاس بمعرفته».

«وأُجيب بأن الحاضرين إذ ذاك لم يبلغوا مبلغ التواتر».

---

(١) هذا قول ابن عباس.

«ولما نقلوا كذبوا، فسكتوا».

«وبقي الأمر مكتوماً إلى أن نطق القرآن به».

«وهذا قريب على قول ابن عباس؛ إنه لم يتكلم إلا ساعة من نهار، وعلى القول الآخر وهو أنه بقي يتكلم، يقال: إن الناس اشتغلوا بعد بنقل ما هو أعجب من ذلك من أحواله كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن الغيوب، والخلق من الطين كهيئة الطير، حتى لم يذكر التكلم منهم إلا النذر، ولا زال الأمر بقلة لم يبق مخبر عن ذلك.

ـ وبقي مكتوماً إلى أن أظهره القرآن».

«والكهل» ما بين الشاب والشيخ، ومنه الكهل النبت إذا طال وقوي. ومعنى ذلك أن المسيح عليه السلام، سينطلق، ويكلم النّاس كلاماً محكماً لا يصدر إلا عن الأنبياء، وهو في المهد، وهو مولود لساعته وتلك معجزة خاصة به.

وأنّه سيكلم النّاس كهلاً، أي رجلاً عاقلاً عظيماً.. أي نبياً يدعوهم إلى ربهم.

وإن كلامه ليس مجرد كلام، وإنما كلام نبوة.

وقد كلمهم في المهد وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

والمعجزة من هذا أنه صدر عن طفل لم يمض على ولادته ساعات!

والمعجزة الأخرى فيه أنّه كلام لا يتكلم به إلا الأنبياء، لما فيه من الأحكام، والانباء بالغيوب!

ثم تكلم عليه السلام، كلامه القوي المعجز، حتى صار كهلاً، في الثلاثين من عمره، ووقف يدعو النّاس ربهم.

وظهرت منه عليه السلام إذ ذاك عجائب النبوة وآياتها[1].

«ومن الصالحين» ومعدوداً في عداد الصالحين، أي: ومن الذين بلغوا غاية مقامات الصلاح.

تلك هي المعجزة الكبرى والبشرى العجيبة التي شافه بها جبرئيل عليه السلام مريم عليها السلام، بشرى هزت كيانها كله هزّاً عظيماً.

إن الله يبشرك بكلمة منه ـ أي بأمر منه ـ بمولود ذكر يولد بأمره، يقول له كن فيكون.

اسمه المسيح، يشتهر بهذا اللقب، لأنه دائماً يسبح في الأرض، وإذا مسح ذا عاهة برىء فوراً!!

عيسى بن مريم، هكذا هو منسوباً إليك، يشتهر بهذا الاسم «ابن مريم» لأنه لا أب له، وجيهاً في الدنيا، عظيماً في الدنيا. وعظيماً في الآخرة أيضاً.

ـ «ومن المقربين» من صفوة عبادنا المقربين.

ويكلم الناس في المهد، سننطقه بكلام الأنبياء رضيعاً.

---

(١) انظر معجزات الأنبياء ـ عبد المنعم الهاشمي مكتبة ابن كثير الكويت ـ دار ابن حزم ـ بيروت.

وكهلاً: ونبعثه إلى النَّاس نبياً في الثلاثين يدعوهم إلى ربهم. ومن الصالحين. ونجعله في أعلى درجات الصالحين.

وهكذا، كانت البشرى التي نقلها جبرئيل عليه السلام، إلى مريم عن ربه تبارك وتعالى. كان مفاجأة، لكنها بشرى عظيمة ونبأً هائلاً له دوي: هناك طفل سيولد منك يا مريم، وسيكون بكلمة منه بأمر مباشر منه تعالى.. لا بواسطة أب.

وسيكون هذا الطفل عظيماً، في الدنيا والآخرة، وستكون منه معجزات.. ومعجزات.

عيسى ابن مريم والحواريون

سعدت مريم ابنة عمران كثيراً بتلاميذ عيسى الأولين، وتلاميذ عيسى الأولون هم الحواريون، والحواريون هم الذين آمنوا به، واخلصوا له في حياته، والذين اخلصوا للمسيحية بعد أن توفاه الله ورفعه إليه في السماء، ذاق هؤلاء القديسين في سبيل المسيحية ألوان الظلم والعذاب، فصبروا حتى وافاهم الأجل، فصعدت أرواحهم إلى جوار الحبيب الأعلى.

وإذا تتبعنا حياة الطبقة الأولى من الحواريين وجدنا اثنين منهم كانا من تلاميذ الرسول يحيى المعمدان (يحيى بن زكريا بن برخيا) ولازماه في رحلاتِهِ، وتجشما معه عناء الحياة في الجبال والبرِّيَّةِ القفراء المجدبة، وظلاً على ولائهما له، وكانا يظنان أنّه النَّبيُّ المنتظرُ. وفي يوم خرجا مع يحيى إلى البرية، ورأوا رَجُلاً هابطاً من الجبل، فقال لهما يحيى: هذا هو المسيح المنتظر.

كان يحيى نبي الله يعرف مريم ابنة عمران وعلمَ بأنه جاء برجاء من زكريا عليه السلام عندما أيقن أن الله يرزق من يشاء بغير حساب كما قالت له مريم، وكان يعرف أن المسيح هو عيسى بن مريم، وأنّه أي عيسى هو المسيح المنتظر، إلّا أن هذان الرجلين الحواريين كانا يظنان أن يحيى هو النبي المنتظر أو المسيح المنتظر.

وذات يوم خرجا مع يحيى إلى البريَّة، ورأوا رجلاً هابطاً من الجبل، فقال لهما يحيى: هذا هو المسيح المنتظر. هو ذا حمل الله، الذي تسألون عنه.

فتركا يحيى، واتجها وحدهما نحو المسيح، مدفوعين إليه بقوة الإيمان التي داهمت نفوسهما خفية، فانضمت إلى قوة إرادتهما، فلازما عيسى المسيح عليه السلام في غدواته وروحاته، وكانا أوَّل تلاميذه الأوفياء المخلصين.

أما هذان الرجلان فهما اندراوس ويوحنا، وكانا من كفرناحوم الذي سكن فيه عيسى وأمه مريم عليهما السلام ووجدا من أهله آذاناً صاغية، وكان أهل كفرناحوم يشتغلون في صيد الأسماك، إن لم يكونوا جميعاً فمعظمهم - وانضم إلى اندراوس ويوحنا أخواهما يعقوب وبطرس، فتكونت من هؤلاء الطبقة الأُولى من حواريِّي المسيح، وكُلُّهُمْ من الصيادين.

أمّا الطبقة الثانية من الحواريين فهم فيليبس، وتوما وبرتلمادوس، ومتَّى وهؤلاء جميعاً كانوا يختلفون عن أفراد الطبقة الأُولى في إقبالهم على المسيح وتصديقهم له، فبدأ إيمانهم أول معرفتهم بالمسيح عليه السلام بالشك والتردد، حتى جاءت معجزات عيسى عليه السلام، فاقتلعت جذور الشك والتردد من نفوسهم، وصفت صدورهم ونفوسهم. أما الطبقة الثالثة من الحواريين فهم إخوة متى - وهم سمعان الغيور، وتداوس، ويعقوب الصغير، وكان هؤلاء جميعاً من اليهود المتعصبين المتشددين في تفسير نصوص التوراة. فأقبلوا على المسيح خصوماً معانديق، ليظهروا دينهم عليه، وناقشوه وجادلوه شأن بني إسرائيل في جدالهم الأنبياء، وانتهوا أخيراً إلى تصديقه والإيمان برسالته العظيمة.

وآخر من انضم إلي كوكبة الحواريين هو «يهوذا الأسخربوطلي» الرجل الثري المعروف بثرائه وكثرة أمواله في هذا الوقت.

ولم يكن هؤلاء الحواريون ملائكة بل كانوا بشراً، ولكنهم نشأوا على النزاهة، وامتازوا بالعصمة في حياتهم وشؤونهم، ورغم ذلك كانوا كما ذكرنا بشراً لا يختلفون عن الناس في طبائعهم وأهوائهم، فكانت نزعة الخير تتجلى في نفوسهم تارة، ونزعة الدنيا تارة أخرى، فيقعون فيما يقع فيه طلّاب الدنيا واللهو والمتاع شأنهم شأن البشر عامة.

آمن الحواريون بالمسيح كما آمن غيرهم، ولكنهم اخلصوا له أكثر من إخلاص غيرهم، كان هذا الإخلاص مَرَدَّهُ الإيمان ولم يكن طمعاً في مُلك أو جاه أو دنيا.

وكانت رؤيتهم عندما التفوا حول عيسى ابن مريم وأُمه العذراء المباركة أن يجمعوا بين ثمرة الدنيا في الحياة وثمرة الآخرة بعد الممات وترجع هذه الرؤية إلى أنهم عندما قرأوا التوراة وجدوها تبشِّرُ بالمسيح الذي يقود بني إسرائيل إلى المجد والعزة، فاعتقد هؤلاء أن عيسى بن مريم سيقودهم إلى نصر دنيوي، يحقق حلمهم في القضاء على امبراطورية الرومان، ليأخذ بني إسرائيل مكانهم في سيادة العالم ولكن من حيث إحراز الثروة وتملكها.

وكانت هذه الأحلام تراود تلاميذ المسيح كما كانت تراود عامة الناس من بني إسرائيل، يطمعون في ذلك، ويحلمون به، وتمنوا أن يكون إيمانهم بالمسيح عيسى بن مريم وحبهم لأُمه العذراء مريم المصطفاة المختارة، تمنوا قرب تحقيق هذه الآمال، وعظم رجاؤهم فيها. فهذا تلميذ المسيح يوحنا الشاب الطامح بل شديد الطموح والأحلام وذاك اندراوس صاحب الفكر العميق الرصين والفهم

الرزين، كانا من صفوة أتباع يحيى المعمدان (يحيى بن زكريا عليه السلام) فلما عرَّفهما بالمسيح عيسى بن مريم سارعا إليه لينالا الحظوة لديه، لعلهما يبلغان شأناً من شؤون ملكه عليه السلام!!

وهذا بطرس الذي وصف بالتسرع والاندفاع، وذلك زميله سمعان الثائر الذي يحب القيادة ويحب وطنه، وكان بطرس وسمعان يطمعان في منصب قيادة الجيوش الغازية للعالم بأسْرِهِ.

ونجيء إلى فيليبس، ومتى، ويهوذا، وغيرهم ممن انضموا جميعاً إلى المسيح ليحققوا أحلامهم في الثروة والجاه كبشر.

إلا أن عيسى ابن مريم عليه السلام استطاع بجهده وبعلمه وسماحته وبتوثيق الله له أن يجعل من هذه النفوس الطامحة إلى المجد المتعطشة إلى الثروة والمال الساعية إلى لهو الدنيا ومتاعها، استطاع أن يجعلهم، ويجعل منهم نفوساً مؤمنة بالله، فإذا سعت إلى المجد سعت إليه في الدنيا والآخرة، وإذا نظروا إلى الدنيا بما فيها من مال ومتاع ولعب ولهو، علموا أن الباقيات الصالحات خير عند الله من كل هذا اللهو والمتاع، وأيقنوا أن شريعتهم تكمن في طاعة الله، ومجدهم يكمن في العدل لا في الظلم، في المحبة والسلام لا في الحقد والضغينة والحرب، علموا أن مكانتهم السامية تكمن فيما يقدمونه من ترانيم الطاعة قولاً وعملاً لله عز وجل خالصاً.

دعا المسيح الناس عامة للإيمان بالله، فكان يعظهم ويهديهم، وكانت مريم كظله تدعمه، وتوجهه وتهديه لأنها سبقته وهي منذورة للطاعة، عرفت السر في الطاعة، وسمعت الملائكة وهي تقول لها:

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ عرفت أن الله عز وجل إنما يقول للشيء كن فيكون.

وقد اختص عيسى ﷺ تلاميذه الحواريين بكثير من المبادىء ليعدَّهُمْ للمستقبل.

ولقد اتجه المسيح ﷺ في تعليم تلاميذه إلى الناحية العملية فكانت حياته ﷺ كلها أمثلة صادقة لمبادئه السامية، وأخذوا عنها معاني الحب للخالق ومخلوقاته، والإيمان المطلق بعطفه في قضائه وقدره.

وتعلم الحواريون من مبادىء المسيح السامية أن التوجه إلى الله بالطاعة والاعتماد عليه، يرفعهم إلى منازل الأطهار الأبرار، الذين يكشف الله عنهم الحجاب، ويؤيدهم بكرمه ورحمته، ويؤيدهم بالكرامات كان المسيح ﷺ بذلك يريد أن يرفعهم عن مرتبة البشرية المادية إلى عالم السمو الروحي، ليكونوا أنوار العناية الإلهية والرعاية السماوية.

رسالة عيسى

تعلم الحواريون من المسيح عيسى بن مريم استاذهم ومعلمهم، تعلموا كيف يحبون الناس، وكيف يحملون رسالة المحبة والسلام، ولقد وجدوا أن الله يؤيدهم بالكرامة متى أخلصوا لهذه الرسالة، فاستطاعوا أيضاً أن يشفوا المرضى من عللهم.

وتعلموا كيف يغضبون للحق، ووجدوا أن الله ينصرهم.

وقد كان المسيح عيسى بن مريم كما كانت أمه مريم أبنة عمران ميالاً إلى السلام والموادعة والمحبة.

ولم يكن المسيح ﷺ موادعاً موادعة الضعف سالماً مسالمة الخوف بل كان صلباً في الحق يغضب من أجله، ويقول ثائراً على هؤلاء المتلاعبون بالقيم والمثل حتى ولو كانوا من حوارييه يقول لهم: «ويل لكم أيها الكتبة والْفَرِّيسيُّونَ المراؤون، لقد جعلتم بيت الله مغارة لصوص».

هذه هي مدرسة المسيح مع تلاميذه، فبينما تراه يمسح دموع الأشقياء ويدعو تلاميذه إلى العطف عليهم، نجده أيضاً يعلمهم الصلابة في الحق والغضب من أجل إحقاق الحق ونبذ الظلم والجور.

لقد حمل المسيح رسالة مشرقة إشراق الأنوار، محرقة حريق النار، فكما كان يعلم الحب والرحمة كان يدعو إلى الغضب والعنف، شأنه في ذلك شأن الأنبياء والرسل جميعاً.

عطف المسيح من عطف أُمه مريم

كان المسيح عطوفاً حنوناً على الفقراء والمحتاجين، كما كانت مريم مع الأشقياء والبائسين فقد استثمرا نعم الله التي عليهما في مساعدة المحتاج والبائس. فقد خرج الصيادون ذات يوم بسفنهم في موسم الصيد ليصيدوا طعامهم. ولكنهم عادوا بالخيبة والفشل، فلم يجدوا سمكة واحدة تعلق في شباكهم.

عاد الصيادون خائبين الرجاء يتملكهم الحزن، وعلى شاطىء البحيرة كان المسيح واقفاً لاستقبالهم، ورأى حالتهم السيئة، فأمر التجار أن ينتظروا من جديد مجيء السمك، وألاّ يذهبوا من على الشاطىء، ونزل في سفينة بطرس أحد حوارييه، ثم أشار إلى الصيادين، فأعادوا شباكهم، ورفعوا أشرعتهم وانطلقوا خلف سفينة بطرس مبتعدين عن الشاطىء، وهم في صراع بين اليأس والرجاء، وعندما أصبحوا في عرض البحيرة، وفي موقع الصيد، أشار إليهم المسيح أن يلقوا شباكهم في الماء، فألقوها، ولما أخرجوها وجدوا الأسماك قد ملأت كل جوانبها وكادت أن تندفع من خيوطها، ففرغوا ما اصطادوا في سفنهم وأعادوا إلقاء الشباك مرة أخرى، حتى امتلأت السفن عن آخرها فعادوا فرحين مسرورين، على وجوههم بهجة الرزق الوفير، وفرجة الصيد الكثير، فباعوا صيدهم، وكسبوا أموالاً كثيرة،

وغنموا مغانم كثيرة ولم يكن ذلك إلا من عطف المسيح على البائسين، فأيده الله عز وجل بنصره، وجاءَهم بالرزق العميم على يده، فاعتبر تلاميذه من هذا الموقف العظيم.

وكان المسيح في داره إلى جوار أمه التي ما فتئت تصلي طوال الوقت فما أن تفرغ من الصلاة حتى تقوم إلى شؤون بيتها تعد طعامها وطعام ابنها، فما كانت مريم ولا ابنها إلا بشر يأكلان الطعام. وقد تحدث القرآن في وصف عيسى وأمه عليهما السلام وبيان حقيقتهما للذين قالوا بهما بهتاناً فقال عز وجل:

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

أي: أن عيسى رسول من خُلَّص الرسل الذي خلوا من قبله، جاءَ بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، وإنْ خلقه الله من غير ذَكر فقد خُلق آدم من غير ذَكر ولا أنثى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ أي: وما أمه أيضاً إلا صديقة كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم، ثم صرح بِبُعْد عيسى وأُمه عما نسب إليهما من الألوهية في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ ومن يأكل الطعام كيف يصح أن يكون رَبّاً أو إلهاً[1].

وفيم كانت مريم العذراء تعد طعام ابنها عيسى عليه السلام سمعت هياج وصياح، وخرج بطرس يستفسر عن السبب، ثم عاد إلى المسيح ينبئه أن رجلاً أبرص يطرق بابه والناس يرجمونه بالحجارة من بعيد كي يبتعد عن القرية، خوفاً من انتشار العدوى، فقام المسيح من فوره، وفتح له الباب بنفسه، فرأى النّاس يبتعدون عنه، وقد أشاحوا

(١) تفسير الزمخشري ج١ ص٦٦٤، ٦٦٥.

بوجوههم عن هذا الأبرص الذي تتقزز منه النفوس يصير إنساناً سليماً جميلاً، وإذا النّاس ذاهِلُونَ، وأقبل الناس على المسيح يقبِّلون يَدَهُ، ويطلبون عفوه لِما بَدَرَ منهم نحو هذا العليل المسكين، وقد عقدوا العزم على أن يُرَوضوا أنفسهم على عدم النفور من مخلوقات الله ولو كانوا مثل هذا الأبرص الدميم.

هكذا تكون خُلُق الأنبياء، فالمسيح عليه السلام يضرب لتلاميذه الأمثلة العملية في العطف على البائسين والمحتاجين، برفق ولين ورحمة «فما كان الرفق في شيء إلا زانه»، وكانت هذه الرحمة التي تفيض من نفسه وعبر مسح يديه، كانت تكريماً من الله عز وجل لعيسى بن مريم عليه السلام.

مريم في عقيدة المسلمين

من معاني العقيدة الإسلامية الإيمان بثبوت المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء وقد قلنا: «أن المعجزة هي عمل خارق يجري بأمر الله على يد نبي من الأنبياء، أما الكرامة فهي عمل خارق يجري بأمر الله على يد ولي من الأولياء الصالحين»[1].

وقد ذكرنا ما قصَّه الله علينا من المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى عليه السلام، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكلامه وهو في المهد.

وقد تحدثنا عما قصه الله علينا من الكرامات لمريم، مثل الرزق الذي كان يأتيها وهي في محرابها، ومثل تساقط الرطب الجني بهزها جذع النخلة الميت.

ومن الخوارق التي أجراها الله تعالى رفعه لعيسى إلى السماء بروحه وجسده.

ومن معاني العقيدة الإسلامية الإيمان بجواز تمثل الملائكة بهيئة البشر فقد جاء من قصة مريم أن جبرئيل عليه السلام وهو من الملائكة

---

(١) انظر كتابنا معجزات الأنبياء مكتبة ابن كثير الكويت ـ دار ابن حزم بيروت.

المقربين تمثل لمريم بشراً سوياً، وقد ثبت في السنة النبوية أن جبرئيل عليه السلام تمثل بهيئة إنسان وجاء إلى رسول الله ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعن الساعة وعلاماتها ثم انصرف، فقال ﷺ: **«أتعرفون من هو السائل؟»** فقال الحاضرون من أصحاب رسول الله: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا جبرئيل جاءكم يُعلِّمكم دينكم»**.

وعلينا هنا أن نعرف بإمكانية تمثل الملائكة بهيئة البشر، وأن هذا يكون بإذن الله ومشيئته، وقد أخبرنا الله بأنه أرسل ملائكة إلى لوط وقد مروا بإبراهيم عليه السلام وهم بهيئة بشر، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٠].

ولما وصلوا إلى لوط عليه السلام ونزلوا في بيته ورأوا قلقه عليهم من خبث قومه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

ومما يتعلق بالعقيدة الإسلامية وجوب توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتحريم الشرك.

ـ عدم مجادلة السفهاء: فقد قال الله عز وجل في مناداة مريم حكاية عما قال المنادي ـ سواء أكان عيسى أو جبرئيل ـ لمريم:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

وقد قال أهل التفسير إن من أسباب أمر مريم بنذر الصوم أي: الصمت عن الكلام، هو كراهة مجادلة السفهاء، مما يدل بذلك على

أن السكوت عن السفهاء مطلوب شرعاً، والواقع أن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة معهم بالسَّفه والجدال أمر مستحب[1].

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

لأن في الإعراض عن مجادلة السفهاء، وعدم مقابلتهم بالسَّفه، صيانة للأعراض، وإكرام للنفوس. وبذلك يكون الكريم كريماً والمتحلي بالحلم حليماً كما كانت مريم العذراء عليها السلام.

ـ الأخذ بالأسباب: إن الأخذ بالأسباب الذي أخذته مريم لا يقدح في إيمانها ولا يناقض توكلها على الله تعالى، فقد رأينا أن الله أمر مريم على لسان من ناداها أن تهز جذع النخلة حتى تساقط عليها رطباً جنياً، قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥].

وهز جذع النخلة سبب لتساقط الرطب، وهنا الأخذ بالأسباب المشروعة لإنجاح الدعوة ضروري، ومن الأسباب المشروعة التي يؤخذ بها ما هو مادي وما هو معنوي.

ومن الأسباب المادية إعداد القوة وأخذ الحذر، ومن الحذر الاختفاء عن أعين الأعداء، كما اختفى النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر في الغار، وبقيا فيه ثلاثة أيام في بدء هجرتهم إلى المدينة.

ومن الأسباب المعنوية الإعداد الروحي وتقوية معاني الإيمان في نفوس الدعاة وفي نفوس المنتسبين لجماعتهم.

---

(١) تفسير الزمخشري ج٢ ص٢٩١.

ـ الابتعاد عن الغلو في الدين: الغلو في الدين: تجاوز الحدود الشرعية، وقد نهى الله أهل الكتاب عن الغلو في الدين، فقال لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

لأن الغلو يوقع صاحبه في مخالفة الشرع ويحسب أنه يحسن صنعاً، ولأن الغلو في الدين ابتداع فيه، والابتداع في الدين مرفوض وحرام، وفي الحديث النبوي: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ».

وقد أوقع الغلو اليهود والنصارى في الضلال ـ فاليهود تجاوزوا الحدود الشرعية في عيسى عليه السلام، وأمه مريم، فأنزلوهما دون منزلتهما التي أنزلهما الله فيها، فكذبوا عيسى واتهموا أمه مريم الطاهرة بالفاحشة، وأنّه ليس بولد شرعي، والنصارى تجاوزوا الحدود الشرعية غلوّا منهم بعيسى فجعلوه وأمه إلهين مع الله، فعلى الدعاة أن يقفوا في دعوتهم عند الحدود الشرعية، سواء كان هذا الوقوف من جهة وسائلهم في الدعوة، أو مناهجهم فيها، أو مواضيع الدعوة، وحتى في عبادتهم أو فيما يطالبون الناس به من أمور الدين، لا يغالوا في شيء من ذلك، وإنما يقفون عند حدود الشرع أي فيما أباحة أو استحبه أو أوجبه، ولا يقعون في مخالفته بارتكاب المحرم أو المكروه في الأسلوب أو المضمون أو الكيفية، وليعلموا أن المقبول من الأعمال عند الله هو ما كان صحيحاً خالصاً لوجه الله، والصحيح ما كان موافقاً للشرع في كيفيته وفي مضمونه.

وليتذكر الدعاة مقالة أولئك النفر من الصحابة الذين تذاكروا في عبادتهم، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أصلي ولا أرقد، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء، فلما بلغ النبي ﷺ ما قالوه، قال: **«أما أنا فأصوم وأفطر وأُصلي وأرقد وأتزوج النساء،**

وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني» أو كما قال ﷺ.

ـ تذكير مريم وعيسى عليهما السلام بالنعم «نعم الله عز وجل عليهما».

فقد قال الله تعالى لعيسى يذكره بنعمه عليه وعلى والدته بقوله:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقد ذكرنا هذه النعم عليه وعلى والدته، فيجب على الإنسان أن يذكر نعم الله عليه وما تذكير عيسى بذلك إلا دعوة للناس لذكر نعم الله عليهم، فقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١].

الأرقام في سيرة مريم عليها السلام

تحدث ابن الأثير[1] في تاريخه عن مريم وأثبت أرقاماً في الميلاد والحياة والممات وجدناها رؤية توثيقية لحياة مريم وأحداثها. فقال ابن الأثير:

ـ ولدت مريم أُم عيسى في بيت لحم سنة أربع وثلاثمائة لغلبة الاسكندر.

ـ ولهبوط آدم عليه السلام خمسة آلاف وخمسمائة وأربع وثمانين.

ـ ولطوفان نوح عليه السلام ثلاثة آلاف وثلاثمائة واثنين وأربعين سنة.

ـ ولمولد إبراهيم عليه السلام ألفان ومائتان وإحدى وستون.

ـ ولوفاة موسى عليه السلام ألف وسبعمائة وست عشرة.

ـ ولابتداء ملك بختنصر سبعمائة وثمان وثلاثون سنة.

ـ وقبل الهجرة بستمائة وإحدى وثلاثين سنة.

ولما ولدته أتت به قومها إلى آخر ما ذكرناه.

وذكر أن مريم سارت به إلى مصر مع يوسف النجار فأقاما في مصر اثنتي عشرة سنة.

---

(١) الكامل في التاريخ ج١ ص١٠٦ ـ وانظر معه تاريخ ابن الوردي ج١ ص٣١، وما بعدها.

ـ ورجع من مصر وأقام في الناصرة إلى أن وصل إلى الثلاثين من عمره. وابتدأ دعوته.

ـ وعاشت مريم عليها السلام ثلاثاً وخمسين سنة، وحملت بالمسيح ولها ثلاث عشرة سنة.

ـ وحاضت قبل حملها حيضتين وعاشت مجتمعة معه ثلاثة وثلاثين سنة، وبقيت بعد رفعه ست سنين.

هذه صورة قلمية لمريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، فاصطفاها الله واختارها وضرب بها مثلاً مع آسية امرأة فرعون فقال عز وجل:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١١ ـ ١٢].

رضي الله عن مريم المصطفاة المنذورة الطاهرة المبشرة بعيسى عليه السلام نبي الله صاحب المعجزات وداعية المحبة والسلام، ومبشراً بمحمد ﷺ رسول ونبي جاء من بعده.

هنيئاً لمريم اصطفاؤها واختيارها وطهرها، فقد كرمتها السماء وكُرِّمت في الأرض، وكانت صديقة، وكانت آية عظيمة هي وابنها عيسى عليه السلام، سلام على مريم في الصديقين والأبرار.

عبد المنعم الهاشمي

الفهرس

سلسلة الأمهات

هي مجموعة كتب تتناول حياة نخبة من السيدات الأمهات اللواتي كان لهن دور بارز في أحداث التاريخ العربي والإسلامي.. تقدمها دار ومكتبة الهلال إلى الأساتذة والطلاب والمشرفين على الشأن التربوي في المدارس والجامعات، وإلى رواد المكتبات العامة.

ولقد قام باعداد هذه السلسلة استاذ مشهود له بالكفاءة العلمية، لتكون نبراساً وهاجاً ينير دروب فتيات اليوم ونساء الغد.

أما الهدف من هذه السلسلة فتهذيبي وتثقيفي، عماده تنمية المعرفة التي يُحصّلها الطلاب والطالبات عن طريق التعليم النظامي، وملء أوقات فراغهم بمطالعات مفيدة.

الناشر



دار و مكتبة الهلال للطباعة والنشر
جادة هادي نصر الله - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 540891 1 961 00 فاكس: 540892 1 961 00 خليوي: 336767 3 961 00
ص.ب.: 5003 / 15 الرمز البريدي 2010 - 1101 البسطا - بيروت لبنان
E-mail: darhilal@arabooks.net